الجزء الثانى

قيم جديدة لأدبنا المعاصر

ألقيت هذه المحاضرات على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد البحوث والدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٦ /١٩٦٧ .

مقدمة الجزء الثانى :

سبقت لى محاولة جادة ، فى إعادة النظر فى تراثنا الأدبى بوعى جديد وفكر حر ، يلائم كرامتنا العقلية ومستوانا الفنى ، ونظرتنا المكبرة لمكان الأدب فى الحياة .

وقد هدت المحاولة إلى « قيم جديدة للأدب العربى » كشفت عما لا يزال يسيطر على فهمنا لتاريخنا وذوقنا لأدبنا ، من أحكام نقدية وقيم أدبية لنقاد قدامى نظروا فى الأدب بأذواق عصورهم وأوضاع مجتمعاتهم وأنماط شخصياتهم .

كما كشفت عن روائع من تراثنا ، ألقى بها مؤرخو أدبنا ودارسوه فى منطقة الظل ، فغابت عن شبابنا فيما تلقوا من نصوص الأدب العربى ، ثم ما كادوا يتصلون بالأدب الغربى حتى جحدوا أدبنا جملة ، ولم يعودوا يجدون فيه سوى ركام من آثار عقليات متحجرة ونفوس مغلقة ووجدان أصم .

والذى هدت إليه تلك المحاولة الأولى ، يغرى بالمضى فيها ومتابعة النظر فى أدبنا المعاصر ، لعلنا نستخلص له قيماً جديدة يصح بها فهمنا للأدب وإدراكنا لدوره القيادى فى حياة الشعوب والأمم .

* * *

ولا يغيب عن بالى هنا ، أن ما أعرضه من قضايا أدبنا المعاصر وأقدمه من قيم له وموازين ، مجالٌ لاختلاف وجهات النظر ، فلتكن هذه المحاولة إذن ، عرضًا لوجهة نظرٍ لى لا أصادر حقًّ سواى فى أن يقف منها موقف التردد أو الرفض أو المعارضة ، ودون أن تعنى أنها الكلمة الأخيرة الحاسمة فى قضايا أعلم أنها ستظل أبدا مجالاً لجديد يُقال . . .

والله المستعان . . .

عائشة عبد الرحمن

مصر الجديدة
١٣٨٦ ، ١٣٨٩
١٩٦٧ ، ١٩٧٠

(١)

المعاصرة والزمان

- وجدان العصر وتراث الماضى
- المناخ الفكرى لأدبائنا المعاصرين
- أدبنا المعاصر ومنطق التطور
- أصوات . . . وأصداء

وجدان العصر
وتراث الماضى

وجداننا المعاصر مشحون بميراث ماضيه ، وأعتقد أن الأديب الذى يفقد اتصاله بماضى أمته ، عاجز تماماً عن التعبير عن وجودها الحى .. ولا يكسب صفةَ المعاصرة من الأعمال الأدبية سواء منها ما أوغل فى العصور الخوالى وما كان من البضاعة الحاضرة ، إلا ما نصغى فيه إلى نبض حياتنا بأبعادها المترامية .

أول ما يعرض لنا من قضايا أدبنا المعاصر ، هو تحرير المفهوم الشائع لمعنى المعاصرة فى مجالها الزمنى ، إذ يحسب كثير منا أنها تعنى فى الأدب ، أن يُشغل بحاضرنا وحده دون التفات إلى ماضيه القريب أو البعيد .

وعند هؤلاء أن الأديب لا يمكن أن ينتمى إلى العصر ويعيش بوجدانه إلا إذا كفَّ تماماً عن الالتفات إلى الأمس ، وتخلص من تأثير تراثه ، وحصر اهتمامه كله فى الحاضر والمستقبل .

وحياة الأديب المعاصر بوجدان زمنه ، ليست موضع جدال أو مناقشة ، ولا يجوز فى رأيى أن تكون مثار خصومة أو خلاف . لكن هذا الوجدان العصرى مشحون بميراث ماضيه بحيث لا يمكن عزله عنه أو بتره منه . وقانون الوراثة يحتكم هنا فى حياة الأدب كما يحتكم فى حياة كل كائن حى ، مادياً كان أو معنوياً .

وليس فى الإمكان أن نتصور الأدب المعاصر نبتاً شيطانياً بلا جذور ضاربة فى أعماق الزمن ، إلا إذا تصورنا أن إنسان العصر لا يمت بأدنى صلة إلى الإنسان الفطرى الأول ، فى عصور ما قبل التاريخ .

وعلماء الحضارة المحدثون ، يشغلون باكتشاف آثار خطوات البشرية على درب الوجود ، دون أن يقال إنهم انفصلوا عن عصرنا .

وقد وقف « داروين » على قمة عصره ، وهو يوغل فى الماضى السحيق متتبعاً نشوء الأنواع ، وملتمساً الظواهر البيولوجية لما قبل عصر الإنسان، كى يقدم نظريته فى التطور ، فى كتابه (أصل الأنواع) الذى نشره سنة ١٨٥٩ بعد عشرين عاماً من الدراسة والتأمل ، ولم يقل أحد إنه رجعى يعيش مع بقايا الحفريات البائدة ، بل الذى قاله مؤرخوه إنه يمثل ذروة التقدم العلمى لعصره الذى دخل تاريخَ العلم باسم « عصر النشوء والارتقاء » .

و « ماركس » الذى فتن جيله وأجيالاً بعده بنظريته فى التفسير المادى للتاريخ ، لم يصل إليها إلا بعد طول تأمل فى ماضى سير الزمان بالشعوب والجماعات ، والنظر الثاقب فى الدور الذى لعبه العامل الاقتصادى على مسرح التاريخ .

ويشهد عصرنا علماء الأحياء عاكفين فى مختبراتهم ومعاملهم على فحص الخلية الأولى قبل أن تنقسم، دون أن يرى فيهم بقايا متخلفة من عصورٍ خلت .

والأمر كذلك بالنسبة إلى أصحاب الفن الأدبى ونقاده ودارسيه : إنهم يستطيعون أن يغوصوا فى أعماق الوجدان الإنسانى المعاصر ويلتمسوا أخفى ما يطوى من ميراث الحقب الغابرة ، ويتابعوا صراع ذلك القديم العتيق مع الجديد الطارئ ، دون أن يحق لأحدٍ أن ينفى عنهم المعاصرة أو يدعى انتماءهم إلى زمن بائد سحيق .

• • •

ومهما يوغل الأديب المعاصر فى الماضى البعيد لتتحقق له ملابسةُ التجربة الأدبية والاندماج التام فى مسرح الأحداث التى اختارها من القديم موضوعاً لعمله الأدبى ، بل مهما يغب عن الزمان والمكان فى استغراقه الوجدانى فيما يكتب عنه من العصور الخوالى ، يظل دائماً على اتصال حتمى وثيق بعصرنا الذى نعيش فيه.

وليس من الضرورى أن يشعر بهذا الاتصال أثناء استغراقه فى عمله وملابسته للواقع القديم ، بل يتحقق هذا الاتصال تلقائياً دون أن يدرى ودون قصدٍ عامد ، لأنه فى وقفته على القديم إنما يتجه إليه قسراً بتأثير مزاجه وشخصيته ، ولا مفر من أن يقع ظلُّ نفسِه على كل ما يقرأ من حديث الزمن الغابر . وهو فيما يكتب لا يستطيع أن يصم مسمعه عن أصداء العصر التى تلاحقه حيثما اتجه. وإذ يلتمس فى عزلته عن عصرنا معايشةَ الأحداث الماضيات التى استوقفته ، يمضى إلى هذه العزلة بوجدان تلقى حظه المحتوم من مؤثرات البيئة والعصر ، ويكتب فيها بقلمٍ من صناعة هذا الزمان ، ومن ثم يُطِلُّ على الماضى من أفق عصرنا ، فتلوح له الرؤى البعيدة على مسرح وجودنا الحى .

ولا يدخل فى حسابنا هنا ما يكتبه كاتب فى زماننا ، عن قيس وليلى مثلاً ، أو عن عنترة ومهلهل ، كما كتب أبو الفرج الأصبهانى فى أغانيه أو شوقى فى مجنون ليلى ، لأن آلية النقل أفقدته عنصر الأصالة التى هى جوهر العمل الأدبى .

• • •

وإذا سأل سائل : أليس فى زمننا هذا بيئات منعزلة عن روح العصر ، ومن ثم يبقى أدبها بمعزلٍ عن أصداء الجديد ؟

فالجواب : بلى ، على صعوبة تصور هذه العزلة فى عصر « الترانزستور » .

ونرجئ النظر فى أدب هذه البيئات إلى موضعه من الحديث عن « المعاصرة والمكان » لنلتفت إلى أدباء يعيشون فى عصرنا بوجدان مغلق وحس أصم ، وهذا موقف يستحق أن نستبين آثاره فى رصيد أدبنا المعاصر ، لكى يعطينا ملامح طائفة من أبناء هذا الزمن ، تعيش فى غيبوبة عن حاضرنا وتكرّ راجعة إلى ماضٍ تتجمد عنده فلا تحس سير الزمان .

وأميل إلى القول بأن مثل هذا الأدب لا يُحرَم صفةَ المعاصرة ، من حيث تعبيره عن ظاهرة اجتماعية تلفت مؤرخى الحضارة وتمنحهم فرصة النظرة الشاملة التى يصدق بها قياسُهم لمدى إحساس الجماعات بسير الزمان ، كما تمنح نقاد الأدب فرصة الرؤية الواضحة لأبعاد الحياة الوجدانية للأمة ، فلا تفلت زاوية من زواياها .

لكن هناك ملحظًا لا يجوز أن يغيب عن بالنا ، وهو أن قبول المعاصرة لمثل هذا الأدب لا يعنى أنه أدب عصرى ، بقدر ما يعنى أنه معبر عن رواسب رجعية فى مجتمعنا المعاصر . وإذن فليس من الحق أن نعطى هذا الأدب، صفةَ التمثيل لروح العصر الجديد ، وإنما نأخذ منه وثائق أدبية مسجلة لرواسبَ يحاول العصر أن يتحرر منها .

وكثيراً ما يخدعنا فى العمل الأدبى أن يضج بأصداء العصر ، فنسرع بالتهليل لعصريته دون أن نتمهل لنستبين ما وراء هذه الأصداء من حِسّ العصر وروحه. وأقرب ما يحضرنى مثلاً للأدب الذى يرتدى زى عصرنا ويخفى تحته روح العصور الوسطى ، ما يغمر السوق الأدبية من قصص وروايات عن المرأة العربية الجديدة ، حيث نراها ترتدى أحدث الأزياء ، وترتاد النوادى وتختلط بالرجال ، وتركب السيارة والطائرة ، وتتحدث بلغة الفرنجة ، ثم تمضى بها القصة لتسلبها وعيها بمجرد أن تواجه تجربة الخروج من قفص الحريم ، فتسقط فى شباك أول صائد لقيها فى غفلة من حارس عفتها .

مثل هذه القصص لا تُحمل على الأدب المعاصر إلا من حيث دلالتها على ما لا يزال فى المجتمع من نظرة رجعية إلى المرأة الجديدة بعينِ حارس القفص وحاملِ أقفاله فى عصر الحريم .

دون أن يغيب عنا أنها أبعد عن روح العصر ، من قصة فتاة بدوية تركب الناقة وتعيش فى الخيام ، وملء يقينها أنها تملك فضيلتها ، وأنها حين تسقط أو تمتنع على أى إغراء وغواية ، فبيدها لا بيد عمرو .

وكما نتقى الخداع بزيف العصرية فيمن ينتمون من أدبائها إلى روح العصور الماضية ، نتقى وهم الرجعية فيمن يطلون من أفق عصرنا على غابر سحيق موغل فى القدم ، على نحو ما يفعل مؤرخ الحضارة ، حين يطل بعقلية اليوم ، على طفولة البشرية فى ماضيها البدائى . . .

وتبرز هنا ، على سبيل المثال ، أساطير الشعوب نبعًا سخيًّا للأدب المعاصر ، يصله بأعمق ما فى ماضيه الغائر تحت طبقات الحقب والدهور ، دون أن يفقد حيوية المعاصرة وملامحها المميزة .

كما تبرز أيضًا قيمة التراث الأدبى والفكرى بوجه عام ، من حيث هو كشف لملامح شخصية الأمة عبر الأجيال ، وصدى لنبض وجدانها الحى على امتداد مسار الزمن .

والدول الطارئة المحدثة هى وحدها التى يحق لها أن تستهين بقيمة التراث وتزعم أنه أكفان موتى يفسد ريحها مناخ العصر ، مستجيبة فى هذا الموقف لما تشعر به من عقدة النقص إذ يعوزها ماضٍ فى التاريخ يعطيها تراثه . وأما الشعوب العريقة فهيهات أن تعى ذاتها دون إدراك عميق لمقومات أصالتها التى حققت بها وجودها على مسار تاريخها الطويل ، بل هيهات أن يصح وجودها المعاصر ما لم يكن قائمًا على أساس من خصائصها الذاتية ، المادية والمعنوية ، التى تميز شخصيتها وتعطيها طابع الأصالة وسمات العراقة .

وروسيا تقدم لنا تجربتها فى هذا الموقف :

لقد حاولت بعد نجاح ثورتها أن تقطع كل صلة لها بالماضى لتبدأ تاريخها من يوم انتصار الشيوعية . وأخذت هذه المحاولة فى مجال الفن ، الاتجاه الذى نادى به « المستقبليون » فى صراعهم مع « الأمسيين » لم يستثنوا منهم الرواد الكبار الذين مهدوا بأقلامهم للثورة وأعدوا لها ضمائر الجماهير وعبئوا وجدانهم ، من

أمثال بوشكين وتولستوى ودستويفسكى وتشيكوف وجوجول ...

لكن المحاولة ما لبثت أن اصطدمت بما فى الوجدان الشعبى المعاصر من تراث ماضيه ، فارتدت بعد أن بلغت أقصى مداها فى عهد ستالين ، وظهر جيل جديد من الأدباء المعاصرين ، يعترفون بالأبوة الروحية لكُتّاب ما قبل الثورة ، ويجدّون فى بعث التراث القديم دون أى يقفوا به عند مرحلة الإرهاص الثورى ، مدفوعين إلى ذلك بإيمانهم بأن وجودهم المعاصر لا يمكن أن يكون قد بدأ من فراغ .

وأكاد أطمئن إلى أن الشاعر والكاتب المسرحى الكبير « فلاديمير ما ياكوفسكى» — ١٨٩٣ : ١٩٣٠ — زعيم المستقبليين ورائد مدرستهم فى الأدب والمسرح ، قد ساوره الشك فى سلامة الدعوة التى عاش عمره يبشر بها ويناضل عنها ، ولعل محنته بهذا الشك قد أرهقته فى المرحلة التى رفض فيها الحياة فألقى سلاحه وأنهى حياته ، بعد ثلاثة عشر عاماً من انتصار الثورة الشيوعية .

• • •

وأعتقد أن الأديب الذى يفقد اتصاله بتاريخ قومه وتراث أمته ، لا يصلح بحال ما أن يعبر عن وجدانها المعاصر ، لأن فقدان وعيه لشخصيتها يجعله أجنبيًّا عنها غريباً عليها، لا ينتمى إليها إلا الانتماء الرسمى الذى يشبه انتماء الطارئين عليها من المستوطنين والدخلاء .

المناخ الفكرى
لأدبائنا المعاصرين

نحن جميعاً أبناء جيل أعوزه التعاصر الثقافى والفكرى فى مرحلة التلقّى والتكوين والتأثر :
فينا من تلقّى زاده الأول من نبع عربى شرقى صميم ، حصّنه ضد تيارات الفرنجة الوافدة .
وفينا مَن لا زاد له إلا الفكر الأجنبى ، وقد أمضى مرحلة الحضانة العقلية والتكوين النفسى فى بيئةٍ عزلته عن وجود أمته .

ودخلنا الميدان الأدبى ونحن نحمل ، رضينا أو كرهنا ، ميراثنا المحتوم ،وهكذا التقينا ونلتقى وكأننا غرباء .

وهذا المفهوم للمعاصرة ، فى مجالها الزمنى ، يلفت إلى ظاهرة واضحة فى المناخ الفكرى لأدبائنا المعاصرين ، وأعنى بها فقدان التعاصر بين أدباء من العرب ينتمون زمنياً إلى عصر واحد ، وينتمون فكرياً ووجدانياً إلى عصور متباعدة وبيئات متنافرة شتى .

وقد أتيح لى أن أشترك فى كثير من مؤتمرات أدباء العرب وندواتهم فى أقطار وطننا الكبير ، كما أتيح لى أن ألتقى بهم فى حلقات دراسية ومؤتمرات دولية بأوربا ، فكانت ظاهرة فقدان التعاصر بيننا تسيطر على جموعنا هنا وهناك وهنالك ، وبدا بوضوح أنه ما من صاحب قلم إلا أخذ مكانه المحدد فى الصراع بين شدِّ الرجعية وجذب التقدمية ، بحيث لا يشق على مراقب أن يلقى فى الجمع المحتشد حزبين متباعدين ، يتحمس أحدهما لقديمنا ولا يمل من اجترار ذكرياته والتغنى بأمجاده والتفاخر بأبطاله ، والفريق الآخر قد طرح وراء ظهره كل ما مضى وفات ، مصغياً بكل وجدانه إلى دعاء الحاضر ، مشدود البصر والعقل والوجدان إلى أمم من الغرب يدين لها بالولاء الأدبى والزاد الفكرى .

وما أيسر أن يُفسَّر الموقف بأنه ظاهرة طبيعية فى هذه المرحلة،عرفتها الدنيا فى كل عصور الخضرمة والانتقال !

وما أسهل أن يقال : لا بأس علينا من هذا الصدام ، فهو دليل حيوية ونشاط ، وصمام أمن يحتفظ للأمة ببعض ميراثها ويلتمس لها جديد غيرها ،فيحميها من الجمود المتحجر ومن الاندفاع الطائش المتهور !

لكن وهَج الصراع كشف وما يزال يكشف عما وراء هذا الظاهر البادى من أعماق غائرة، كما كشف ضجيج المعترك الأدبى عن عُقَدٍ وأزمات لا يهون معها أخذُ الأمور بظواهرها ، ولا يسلم بها الاطمئنان إلى أن دنيانا بخير ،وأن مايصطخب فيها من تيارات متضادة لا يعدو أن يكون دليلَ اتزانٍ وظاهرةً طبيعية للمرحلة التى نجتازها ، بكل حيويتها وصخبها وتناقضها .

كلا . .

ليس الأمر بمثل هذه البساطة واليسر .

إنما يكون الموقف طبيعيًّا ، حين لا يشق علينا أن نلمح فى كل أديب منا ، تلاقى القديم والجديد ، على تفاوتٍ بين الأدباء فيهما ، كمًّا وكيفًا ، ومن ثم تلوح على أفقنا نقط اتصالٍ يلتقى عندها الطرفان المتباعدان فى القطاع الزمنى الواحد .

تمامًا كما تلتقى أجيال من الأمة فى مرحلة زمنية ، كل جيل منها منتمٍ إلى عصر غير عصرى أبائه وأولاده ، مخلوق لزمان غير زمان سلفه أو خلفه: وبينهم مع ذلك ملامح مشتركة لروابط جامعة . .

والتفسير البيولوجى للتاريخ ، إذا كنت قد فهمته فيما قرأت لأستاذنا « الدكتور محمد كامل حسين» يستطيع أن يجلو هذا التسلسل الطبيعى للكائن الحى عبر مراحل تطوره ، من أبعدِ قديمه إلى أحدثِ جديدهِ . والفكر كائن معنوى ، يصدق عليه ما يصدق على الكائنات الحية المحكومة جبريًّا بقوانين الوراثة ، وقوانين التطور معًا .

لكن الذى نلحظه فى ظاهرة فقدان التعاصر بين أدبائنا ، أن كل طائفة منهم تقف بمعزل تمامًا عن الأخرى ، دون قدرٍ مشترك من الملامح الفكرية الشاهدة بانتمائهم إلى أمة واحدة وعصر واحد ، ودون نقط اتصال يلتقون عندها ، ما بين أقصى الطرفين ، ليكون تفاوتهم بعد ذلك ظاهرة طبيعية تفسرها جبرية الوراثة وحتمية التطور .

ولست أقول بشذوذ هذه الظاهرة ، وإنما أحاول تعليلها فى وجودنا الأدبى ، فأراها أثرًا محتومًا لتفاوتٍ بعيد فى ظروف نشأتنا ومناهل ثقافتنا ، أعوزتنا معه المعاصرة الفكرية ، لا بين الأدباء منا فحسب ، ولكن بين أبناء هذا الجيل من المثقفين العرب .

نحن جميعًا أبناء شرعيون للجيل السالف الذى شهد فى الأسرة الواحدة — كما قال الرئيس جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة — « أبًا معممًا من صميم الريف . وأمًّا منحدرة من أصل تركى ، وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الإنجليزى ، وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى . كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ، ومظاهر القرن العشرين » .

نحن جميعاً ننتمى بأقرب ميراثنا إلى عصر الاحتلال الأجنبى ، حيث عُطلت الطاقة العقلية لمن تتاح لهم فرصة التعلم من أبناء الأمة ، وصُيرت المدارس مصانعَ لسبكِ ما تحتاج إليه أجهزة الدواوين من أجهزة بشرية .

وفُتحت الأبواب ، كلُّ الأبواب ، للبعثات التبشيرية والإرساليات الأجنبية من كل جنس وملة ، لتتغلغل فى صميم الوجود الفكرى للأمة وتسلخَ من استطاعت من أبنائها ، بما توصل فيهم من عقدة الشعور بالنقص ، وما تلقى فى روعهم من أن الشرقية سمة تخلف وانحطاط ، وأن اتصالنا بقديمنا ظاهرة تحجر وجمود .

وفى أقصى الطرف المقابل ، كانت المعاهد الدينية تصنع صنفاً آخر من الطلاب ، انفصموا تماماً عن العصر ، وحُصِّنوا ضد جرثومة التطور وبدعة التجديد وزيغ العلم الحديث ، فخرجوا وهم واثقون أن لديهم وحدهم كنوز المعرفة ومفاتيح فهم الكون ، أما الآخرون فيعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .

وماج الفراغ السحيق بين الطرفين المتقابلين بتيارات شتى وافدة من الخارج ، وتدفَّقَ سيل الغزو الفكرى يجتاح الحمى المستباح ، دون أن تصده سدود وحواجز ، والأمية فاشية والجهل فريضة مقررة فى شرعة الحكام .

وقد كان إنشاء الجامعة فى مصر عملاً قومياً حاسماً لإيجاد بيئة محررة الفكر تعتصم بها الأمة فى مهب الريح ، وتخط لها طريقاً مأموناً عبر الهوة السحيقة بين طلاب المعاهد الدينية وطلاب سان مارك والفرير والجزويت وفيكتوريا والأمريكان وما لا أحصى من مدارس الإرساليات التى انتشرت فى الوطن العربى تحت ظل الاستعمار وفى حمايته ورعايته .

كما كان التعلم الجامعى فى الوقت نفسه ، خطة قومية مضادة لسياسة الاستعمار التعليمية ، وإطلاقا لطاقات الأمة العقلية من مصنع الآلات البشرية لأجهزة الدواوين .

وبدأت الجامعة تشق طريقها فى ظروف صعبة ، وهى تدرك رسالتها حق الإدراك وتعى هدفها أتم الوعى .

دون أن يتشابه عليها الأمر فتخلط بين مهمتها فى قيادة الحياة العقلية للأمة وتحقيق وجودها الفكرى الحر ، وفتح الآفاق الفسيحة لطموحها ، وبين مهمة

المعاهد العليا لإعداد طبقة خاصة من الموظفين حسب ما تقتضيه الحاجة الديوانية ، وفى حدود ما رسمته النظم السياسية والأوضاع الاجتماعية الطبقية التى كانت قائمة .

ولا التبس عليها الفرقُ بين التدريب المنهجى للطلاب العرب على التفكير المستقل والبحث الحر ، وبين صبهم فى قوالب متماثلة تلغى شخصياتهم التى لا يستطيعون بدونها أن يمارسوا وجودهم الفكرى الطليق ، وأن يقودوا الأمة إلى ما تستشرف إليه فى مجال تخصصهم .

لكن حكومية الجامعة ، فى عهد الاحتلال ، ما لبثت أن كبَّلتها بأغلالٍ من اللوائح أملاها الوضع الطبقى ، فكانت رسوم التعليم الجامعى جواز المرور إلى حرمها المحظور على الفقراء من أبناء الشعب ، كما ألقت سياسة العهد ظلالها على الطريق ، فكانت محنة الجامعة بالحزبية السياسية التى سممت جوَّها العلمى ، لا تقل عن محنتها بتغلغل النفوذ الاستعمارى الذى اتخذ من مناطق معينة فيها ، قاعدة لتدمير معنويات الأمة ، ومجالَ غزوٍ فكرى يظاهر ما اجتاح وجودَنا العام من غزو مثله ، عن طريق مؤسسات الثقافة الأجنبية وأجهزة دعايتها المدربة .

وشغلت الأمة فى مصر وفى سائر أقطار الوطن العربى ، بنضالها السياسى عن وجودها الفكرى ، كما شغلت الجامعة بمصابها عن أعباء مركزها القيادى فى الأمة ، وانطوت على كيانها المريض تحاول أن تستبقى فيه روح الحياة وإرادة البقاء ، فى الوقت الذى كانت فيه دور العلم الأخرى فى الوطن العربى ، ترزح كذلك تحت أوضاع مماثلة .

وخلا الجو ، أو بدا أنه خلا ، لتيارات الغزو الفكرى ، فازدادت أزمة فقدان التعاصر بين أبناء جيلنا حدة وتعقداً ، وضج الميدان بدوىِّ الصدام بين قديم وجديد ، ويمين ويسار ، وشرق وغرب .

وفى دوامته العنيفة ضلت المقاييس واختلطت المفاهيم واضطربت القيم ، فلم نعد فى الصعيد الفكرى نميز بين الرجعية والمحافظة ، أو بين الجمود والأصالة ، كما لم نعد نفرق بين الاقتباس الواعى والتقليد المُردِّد للأصداء .

وتمزقنا طوائف وأحزاباً ، ومضينا طرائق قدداً ! [١]

وتحررت أقطار وطننا الكبير ، ومضى ذلك العهد بأوضاعه ، لكن بعد أن خلّفنا غرباء : لم نلتق فى طور التكوين ومرحلة التلقى ، فشق علينا أن نلتقى فى طور النضج ومرحلة الرشد والاستقلال . . .

فينا من يتلقى زاده الثقافى والفكرى والفنى من نبع شرقى صميم ، يباهى بمناعته ضد التيارات الوافدة .

وفينا مَن لا زاد له إلا الفكر الأجنبى ، وقد أمضى مرحلة الحضانة العقلية والتكوين النفسى فى بيئة عزلتْه عن تاريخ أمته ولسان عربيته .

ودخلنا الميدان الأدبى والفنى ونحن نحمل ، رضينا أو كرهنا ، ميراثنا المحتوم ، ونسير فى اتجاه مقرر مفروض لا نملك أن نحيد منه .

وهكذا التقينا ونلتقى ، وكأننا غرباء !

• • •

وقد يتبادر إلى الظن أن أزمة غربتنا إنما تبلغ ذروتها الدرامية ، حين يلتقى أدباء العرب فإذا فيهم من يُعييهم أن يعبروا عن أنفسهم بلسان عربيتهم .

وهذا هو ما كنت أتصوره ، إلى أن التقيت بعدد من إخوتنا أدباء الجزائر الذين سرق المستعمر لسانهم ، فى محافل أدبية جمعت بيننا فى مصر والجزائر وبغداد ، وفى روما وطشقند .

هنالك أدركت أننا جميعاً فى البلوى سواء ، وكلنا فى الهمّ شرق .

ولعل الفرق الوحيد بين أدباء الجزائر وغيرهم من أدباء العرب المعاصرين ، أن الأولين على وعى تام بالمحنة . والذين عرفوا « كاتب يس » عن قرب ، يدركون إلى أى مدى أرهقه الإحساس بالغربة المعنوية وأضناه وعيُه لمأساة التمزق والضياع التى عبر عنها زميله الشاعر الشهيد « مالك حداد » بصرخته المثيرة :

---

(١) عالجت هذا الموضوع بمزيد بيان فى مقال عن « تطورنا الفكرى » نشرته جامعة عين شمس فى كتابها « أضواء على الثورة » سنة ١٩٦٣ . وللحديث بقية تأتى فى القسم الأخير من هذه المحاضرات .

لا تَلُمْنى يا أخى . . .

إذا لم يطربك غنائى

أنا لا أغنى . . .

لقد سرقوا لسانى فأنا أصرخ .

على حين نلتى بالمشرق أدباء آخرين ، يجهلون أنهم يعيشون كذلك فى أوطانهم غرباء : يحملون أقلاماً عربية ، وعقولهم قد تشبّعت بالفكر الغربى ، وعواطفهم قد تسلط عليها الأدب الأجنبى ، ومن ثم تعوزهم الروابط التى تربطهم بأرضهم ...

ويفقدون فى زهو العصرية ملامح أصالتهم : عقولهم مشدودة إلى الغرب مأخوذة بفتنته ، وهم مع ذلك عاجزون — وإن جهلوا عجزهم أو تحدّوه مكابرين — عن التخلص من احتكام الميراث الذى تأصل فى أعماق كيانهم ، فإن لم يبلغ الموقف بهم مبلغ الضياع ، فأهْوَنُ ما يوصف به أنه محنة تمزق وانفصال فكرى ووجدانى عن جمهرة مواطنيهم ممن تقطعت الأسباب بينهم وبين الموارد الغربية . وقد عالج السفير الهندى « بانيكار » هذه الأزمة بعمق ووعى ، فى محاضرة له ألقاها بباريس سنة ١٩٦٠ عن « المشكلات الثقافية فى الشرق الآسيوى الإفريقى » وكشف فيها عن تعطل الدور القيادى للشباب المثقف ، فى نهضة بلادهم ، أثراً لعزلتهم الفكرية عن أهلهم وانفصالهم ، العقلى عن جماهير الشعب .

* * *

ليست مأساة فقدان التعاصر إذن محصورة فى غربة الأدباء الذين سرق المستعمر لسانهم ، وإنما هى مأساة عامة ، وإن تفاوتت مظاهرها وضوحاً وخفاء ، وتفاوت إحساس أدبائنا بها بين عمق الوعى وغفلة الوهم أو تجاهل المكابرة !

وإذا كان «محمد ديب ، ومالك حداد ، وكاتب يس ، ومولود معمرى ، وآسيا جبار» وأمثالهم . . يقدمون صورة معبرة عن مأساة الغربة التى تسيطر على المناخ الفكرى لأدبائنا المعاصرين ، فهناك من كتابنا من تنكشف فيهم أبعاد أخفى للمأساة : أقلامُهم عربية ، وفكرُهم مجلوب ووجدانهم مستعار .

وآخرون منا قد انفصموا تماماً عن عصرنا وراحوا فى غيبوبة لا تعى ما يدور حولها ، وتحسبه من وسوسة الشيطان وأفاعيل الجان .

وضج الميدان الأدبى بالتهم يتقاذفها هؤلاء وأولئك : فأصحاب القديم مطاردون بوصمة التخلف والتحجر والجمود ، وربيبو المدرسة الغربية مطاردون بلعنة المروق والانسلاخ عن قوميتنا ، مجرحون بعقدة « الخواجة » .

• • •

وما من ريب فى أن من بين أدبائنا المعاصرين الأصلاء من احتفظوا برشدهم فى دوامة الإعصار المادر ، فثبتوا أقدامهم على أرضهم ومدوا أبصارهم إلى بعيد الآفاق . . .

ولكن فيهم كذلك من اختلط عليه الأمر وتشابهت المسالك ، فأضنته الحيرة بين قديم موصوم بالتخلف والعقم ، وجديد موسوم ببصمة الأجنبى . ويمكن أن أقدم شاعرنا الراحل الشاب « أبا القاسم الشابى » نموذجاً لهذه الفئة من أدبائنا ، المرهقة بضغطة التمزق بين شد الرجعية وجذب العصرية .

وكتابه « الخيال الشعرى عند العرب » يجلو لنا أبعاد المأساة ، وسوف أقدمه فى محاضرة تالية ، عبرة ومثلاً .

• • •

وقد تسألون : ألا تعانى دول الغرب من مثل هذه الأزمة ، فى فقدان التعاصر بين أدبائها ؟

والذى أعلمه وقد طوفت بالآفاق شرقاً وغرباً ، أن هذه الدول قد اتقت الأزمة ، حين حرصت على وحدة التكوين الثقافى لأبنائها فى مرحلة النشأة والتلقى ، حيث لا يبدأ تقديم الثقافات والآداب الأجنبية إلى جيل الغد ، قبل الاطمئنان إلى أنهم اتصلوا بثقافتهم وأدبهم القومى اتصالاً وثيقاً يكفى لأن يضع أساس تكوينهم العقلى والوجدانى ، وبعد ذلك تأتى فى المراحل الأعلى ، روافد جديدة من ثقافات الأمم الأخرى .

ولا أذكر أنى لقيت قط ، مثقفاً ألمانياً يعرف شكسبير قبل أن يعرف جوته ،

أو أديباً إيطالياً يعرف شوسر وهيجو قبل أن يعرف دانتى ، أو طالباً إسبانياً يعرف موليير قبل أن يعرف سرڤانتس !

كما لا أتصور أن مثقفاً غربياً ، مَن كان ، يقرأ تاريخ دولة أجنبية قبل أن يكون قد وعى تاريخ أمته ، أو يتقن لغة مستعارة قبل أن يفقه لغة قومه !

ومن هنا كفلت الثقافة القومية الموحدة ، فى مراحل التعليم الأولى ، القدرَ الكافى من التعاصر بين أدباء الجيل الواحد، وإن تفاوت بعدها حظُّ كلٍّ أديب من الاتصال بالفكر الأجنبي .

على حين نرى من بين أدبائنا ، من يعييهم أن يكتبوا بلسان عربيتهم ، ومن يجهلون تاريخنا القومى والأدبى ، إلى جانب من ليس لهم أدنى حظ من ثقافة غربية .

وإذا كانت الأقطار الحرة فى الوطن العربى قد اتجهت بعد معارك تحريرها إلى تعريب الثقافة وتوحيد برامج التعليم فى مدارسها ، فلنذكر أن أدباءنا المعاصرين قد تم تكوينهم الفكرى والفنى قبل عصر الاستقلال ، فخرجوا إلى الميدان خليطاً متنافراً متناكراً ، فهم فيما بينهم غرباء .

• • •

وهنا أقف لأسأل :

هل من قيمة جديدة نستحدثها لأدبنا المعاصر فيما يتصل بالمفهوم الزمنى للمعاصرة وما يلابسها من مناخ فكرى لأدبائنا ؟

لعلى لا أضيف قيمة جديدة وإنما قصارى الجهد أن نصحح زيفاً نتورط فيه ، حين ننظر إلى أدبنا الجديد بعين العصر ، ونعرض أدباءنا على مقاييسه .

نحن مثلاً نعد من المعاصرين ، كل أديب غربى الثقافة أجنبى الزاد !

ونعُدُّ من الأمسيين ، كل أديب عربى الثقافة شرقى السمات، بصرف النظر عن العمل الأدبى الذى يقدمه كلاهما .

وهذا المقياس يستند إلى الفهم الشائع عن ارتباط مدرسة الفكر الغربى بالعصر الحديث ، على حين تحتاج المدرسة العربية إلى أن توغل فى أعماق قديمنا وتتزود من المنابع الثقافية العريقة العتيقة ، التى تفصلنا عنها عصور طوال .

وننسى أن المدرسة الغربية كذلك توغل فى أعماق ماضيها ، وتتصل بمناشئها الأولى من عصور ما قبل التاريخ[١] .

وهكذا نترك هذا المقياس للمعاصرة، يـُزيـِّف مفهومها فيضع بصمتها على كل ما يكتبه أصحاب الثقافة الغربية ، ولو ارتدوا إلى العصور الخوالى وتنفسوا فى مناخها الأسطورى .

ونسلب الأصلاء من ذوى الثقافة العربية حقَّ المعاصرة ، ولو عاشوا بروح عصرنا ورجَّعوا نبض وجدانه .

وقد آن لنا أن ندرك سذاجة هذه المغالطة :

ندعو إلى الاتصال بقديمنا والكشف عن أعماق وجودنا واجتلاء آثار خطانا على درب الزمن ، فنوصَم بالتخلف والغيبية .

---

(١) انظر مقالى الدكتور محمد مندور عن بيجماليون ، وأرواح وأشباح ، فى كتابه « فى الميزان الجديد » ط لجنة التأليف ١٩٤٤ .

أما إعادة ترجمة مسرحيات شكسبير ، فتُعد خطوة تقلمية تعين على تطورنا ، وتنقلنا بساحراتِ « مَكبث » إلى عصر غزو الفضاء !

ويقدم الأصلاء منا نماذج فنية لشخصيات من تاريخنا ، فيقال « إننا نصر على أن يظل الشرق العربي فى مكانه الاستراتيجى بمقابر الأنبياء »[1] .

أما إذا عشنا فى أساطيرِ شعوبٍ بادت ، مع زيوس وباخوس وجوبيتر وما لا أدرى من آلهة خرافية ، فنحن عصريون مجددون ، نطل بقومنا على رحب الآفاق !

ونقدم « أبا العلاء » أديبًا عربيًا أصيلاً حرًا ، فيزوَرُّ عنه ربيبو الثقافة الأجنبية ، والمصابون بعقدة « الخواجة » ، حتى إذا قدمه زميل آخر ربيبًا للثقافة اليونانية ، أفسحوا له مكانه فى وجودنا الأدبى المعاصر . . .

ونُطل فى شعرنا الحديث على آثارِ خُطاه الماضيات فى شعر الطليعة الرائدة من عصر البارودى والتيمورية ، فتأخذنا صيحات تتساءل عن وجه إقحام ذلك الماضى على جديدنا .

فأما إذا نقلوه إلى ساحة « توماس ستيرن إليوت » فإن أنفاسه الغربية هى التى تنفخ فى شعرنا من روح العصر !

ولا بد من ضبط هذا الاختلال ، فنرفض بمنطق المعاصرة كلَّ ما انعزل عن وجودنا دون أن يخدعنا انتماء الأديب إلى مدرسة حديثة أو قديمة ، غربية أوشرقية . ونقبل كل ما كان معبراً عن جانب من وجودنا منفعلاً بذاتيتنا ، مهما يكن منهله ، مادام قد صار عنصراً من عناصر شخصيتنا .

وبهذا الضابط ، لا تكون أساطير اليونان التى يقدمها أو يستلهمها أدباء عرب محدثون ، ويقفون بها حيث هى بعيدة عنا غريبة علينا ، أدنى إلى المعاصرة من

(١) العبارة بنصها من كتاب « سلامة موسى وأزمة الضمير العربى المعاصر » وسوف أناقشه فى المحاضرة التالية . .

أساطيرِ شعوبِنا القديمة ، حتى ما انقرض منها وباد ، تاركًا رواسبه فى أعماق ذاتنا .

ولا يكسب صفةَ المعاصرة من الأعمال الأدبية، سواء منها ما أوغل فى العصور الخوالى ، وما كان من البضاعة الحاضرة ، إلا ما نصغى فيه إلى نبض حياتنا بأبعادها المترامية .

واعرضوا على هذا المقياسَ الضابط ، كلَّ الأعمال الأدبية ، فى مختلف أنواعها وفنونها ، وشتى مناهلها ومصادر إيحائها : يحددْ لكل منها موضعه من المعاصرة دون أن يضطرب أو يختل .

واعرضوا عليه أدباءنا المحدثين ، على اختلاف مدارسهم ومذاهبهم ، وتفاوت منابع ثقافاتهم وأجواء فكرهم ، يحدد لكل منهم مكانه فى وجودنا الأدبى الحى ، دون أن يزيف أو يضلل . . .

أدبنا المعاصر ومنطق التطور

وجودُنا الحي ، يفرض علينا أن نضيف
جديداً إلى تراثنا ، فتلك هي سنة التطور .
ومن ماضينا يكون منطلقنا إلى مرحلة تبدأ
من حيث انتهى أمسنا ، لتتقدم بنا خطوة
نحو أفق يمتد ويرحب كلما قطعنا شوطاً في
العروج إليه .

وإذا كان نوقوف الجامد عندما وصل إليه
أمسُنا خروجاً على قانون التطور ، فإن بتر ذلك
الماضي والانطلاق من فراغ ، مسخٌ لمفهوم
التطور بما هو تدرج الكائن الحيّ في الصعود
إلى أفقِ كمالِه .

وذلك الضابط لمفهوم المعاصرة فى مجالها الزمنى ، يهدينا إلى ملاحظة دقيقة فى دلالة التطور .

فقد كشفت الخصومة حول الشعر الجديد عن أخطاء جوهرية فى فهم القضية من حيث هى قضية تطورٍ محتوم يعوزنا أن نحرر مغزاه ونضبط دلالته ، حسماً لخصومةٍ ما كان ينبغى أن نتورط فيها لو أننا فهمنا القضية على وجهها الصحيح .

والخطأ الأول فى تقديرى ، أن فينا من لا يزال يجحد حق الشعر المعاصر ، والأدب بوجه عام، فى أن يضيف جديدَه المبتكر إلى رصيد عصورٍ خلَتْ، وهو حق مقرر بمقتضى قانون التطور الذى يسرى على الأدب الحى .

وعندما يقف الأدب عند التقليد والنقل والتبعية ، دون أن يتجاوزها إلى الإبداع والابتكار والتنمية ، فإنه يقضى على نفسه بالجمود والعقم ، لا يعصمه منهما أن تصخب حركته المغلولة بهتاف «محلَّك سِرْ » أو أن تتضخم بضاعته وقد أعوزها الابتكار الأصيل الذى يُخصب الوجود الفنى للأمة ويتقدم بها خطوة على مدارج الترقى .

ودفعُ التطور - فى أى مجال من الحياة ، ليس من اختصاص الكثرة التى تقتحم الميدان بموهبة هزيلة أو بوهم الموهبة ، فتظل فى المرتبة الدنيا تستنفد طاقتها فى التقليد والمحاكاة - وتملأ الساحة الهابطة بأكوام من محاولات فجة مُسِفَّة .

كلا ، ليس دفع التطور من عمل هؤلاء ، وإنما هو دائمًا فى كلّ مجالٍ وكل زمان ، عمل قلة من الصفوة عرجت على السفح إلى قمة عالية ، مستشرفة بالإنسانية إلى آفاق لم يرتدها أحد من قبل ، وملبية هيامها الدائم إلى الكمال وسعيها الدائب نحو عالم المثل .

وليس من طبيعة الأشياء ولا من سنة الحياة ، أن تقف الإنسانية عند مرحلة بعينها تعدها غاية المسعى ونهاية المطاف ، بل إنها ما تكاد تصل إلى ما تمثلته وسعت إليه ، حتى يلوح لها أفق أبعد لم تكن تستشرف له فيما قطعت من مراحل سابقة على الطريق، وحينذاك تدرك أن ما حسبتْه بالأمس مثلاً أعلى للحق والخير

والجمال ، لا يعدو أن يكون تمثلاً مرحلياً يرقى بها درجة إلى حيث يبدو لها أفق أوسع ، فتستجلى من رحاب الحياة والكون ما لم يكن يبدو لها فى مرحلة مضت .

والأصلُ أن تخطو البشرية دائماً على مراقى تدرجها ، فيساير هذا التدرجَ تطورٌ فى إدراكها وغاياتها ومُثلها ، ومن هنا كان تطور الفن سنة الحياة وقانونها الطبيعى . ولكن الذى يحدث أحياناً أن تقوم معوّقات فى سبيل التطور ، تحاول أن ترده عن مسعاه أو تضلله عن مساره الصحيح ، فتتعطل حركته ريثما تسترد الحياة من قوى الصحة والوعى ، ما تقاوم به عوادى المرض وتمزق حجب الغفلة وغواشى التضليل . ومن ثم تستأنف السير والعروج ، بعد أن تكون قد خسرت كثيراً وتكبدت تضحيات جسيمة .

ومع إيماننا الراسخ بأن الوقوف فى وجه التطور تأباه طبيعة الوجود ، وأن كل محاولة لتجميد حركة الكائن الحى ، مادياً كان أو معنوياً ، لابد أن تنسخها آية الحياة . . .

فالذى لا شك فيه أن مثل تلك المحاولة ، على عقمها ، تعوق خطانا وتبدد طاقاتٍ ليس من حق جيلنا أن يضيعها على الأمة عبثاً .

* * *

ووعى التطور هو الذى يمنح الصفوة من أدباء القمة ، فرصتهم لارتياد آفاق من الفن والحياة لم يستشرف لها قديمنا ، فتكون القيادة الأدبية اتجاهاً إلى شوطٍ يبدأ من حيث انتهى شوط سابق ، لا أن تسير بنا حيث سار رُوَّادُ مرحلةٍ ماضيةٍ ، أتموا رسالتهم فى كشف أسرارها واستيعاب أبعادها ودفع خطاها إلى الأفق الذى طمح إليه زمانهم .

وما تخلف أدبنا فى عصور انحطاطه ، إلا لأنه وقف يجتّر قديمه ويحاول أن **ينسج على منواله** . ويرى فيه غاية المسعى وقمة الطموح وذروة الكمال . ذلك حين كان مجد الأديب يقاس بمقدار ما يبلغه من شوط أئمة فحول الماضين ، وحين كان مطمح أمانيه أن يقال إنه متنبى زمانه أو جاحظه أو أبو نواسه أو أبو تمامه أو وليده البحترى . . .

دون أن يمد الأديب تطلعه إلى ما بعد هؤلاء الذين لبوا حاجة زمنهم وقادوا وجود قومهم فى مرحلة بعينها على مدرجة التقدم .

أجل ، تلك كانت علة التخلف الفنى والأدبى ، نجد صداها وتفسيرها ، فيما غشى حياة أمتنا فى تلك العصور من انحطاط عام وجمود مسيطر ، لطول ما قنعت بأن تقتات من مجد قديم لم تمنحه من وجودها نبض حياة أو حس حركة . . .

وكانت العبرة الكبرى ، أن سنة الحياة استطاعت بعد حين أن تكتسح تلك المعوقات ، وأن قانون التطور غلب عقم الجمود . لكن بعد أن تعطل سير الأمة العربية زمناً ، وفاتتها مراحل من التقدم جاهد رواد اليقظة فى تعويضها بجديد من حيويتهم . فوصلوا بنا إلى حيث ينبغى أن ننطلق مع التطور بأقصى ما نستطيع من طاقات .

ونقطة الانطلاق ، يجب أن تبدأ بالتسليم بأن أدبنا المعاصر ملزم بأن يضيف جديداً إلى قديمنا ، وأن يرتاد لنا آفاقاً لم يتطلع إليها أمسنا ، خضوعاً لمنطق التطور .

* * *

ولا بأس هنا من وقفة قصيرة ، نطل بها على تاريخ أدبنا الحديث ، فى سيره وتدرجه من بدء مرحلة اليقظة والبعث .

وإذا عددنا « البارودى » رائد تلك المرحلة ، فيجب ألا يختل الميزان فى تقييمه بمنطق التطور ، فنحسب أن مجد البارودى أنه كان فى الشعر العربى بحترى زمانه أو ابن معتزه أو شريفه الرضى أو أبا فراسه . . .

ونتصور أن دوره الجليل ، عودته بالشعر العربى إلى ماضى عصور ازدهاره ...

فتكرار الشعراء القدامى ، لا يعطى قيمة حقيقية ومجداً أصيلا . ومجرد العودة إلى عصر خلا ، أولى بأن تحسب رجعة إلى حيث وقف الشوط بسلف مضوا !

و إنما كان مجد « البارودى» فى حساب الفن والحياة، أنه بث فى الشعر من نبض الحياة ما استطاع به أن يسترد أنفاس الصحة بعد سقم طويل ، ويتهيأ

لاستئناف السير التقدمى من حيث انتهى به الشوط فى عصر ازدهاره .

ومكان البارودى فى تاريخنا الأدبى ، ليس حيث يُنفى عن عصره لينتمى إلى العصر العباسى أو العصر الجاهلى ، فذلك ظلم فاحش تورط فيه أكثر دارسى البارودى ومؤرخيه ، من حيث أرادوا أن ينصفوه ويقدروه .

وإنما مكانه الصحيح ، بين الصفوة من رواد مرحلة اليقظة فى تاريخ أمته :

لم يرجعوا بها القهقرى إلى عصر قوة مضى ، ولا حملوها على الانطلاق وهى مثقلة برواسب التخلف وأسقام المرض ، وإنما كانت رسالتهم الكبرى أن يُشخِّصوا عِلتها ويكشفوا عن الخلايا الحية فى صميم كيانها العليل ، ويستثيروا أعمق ما فى ذاتها من إرادة الحياة وطاقة التحدى والنضال ، لكى تسترد قدرتها على مقاومة الداء ، وإصرارها على البقاء ، وتمضى بحيويتها المتجددة نحو عصر جديد . . .

والذى قام به قادة الثورة العرابية فى المجال السياسى ، والأفغانى ومحمد عبده فى مجال الإصلاح الدينى ، وقاسم أمين فى المجال الاجتماعى ، ولطفى السيد وعاطف بركات فى المجال الفكرى ، هو بعينه ما قام به البارودى فى المجال الأدبى : أدرك الشعر مريضًا سقيمًا فلم يقسره على الانطلاق وهو مهيض الجناح ، ولا عاد به القهقرى إلى ماض له بعيد، بل نفذ بوجدانه الملهم إلى علة مرضه واهتدى ببصيرته المرهفة إلى الخلايا الحية فى الكيان العليل ، وما زال يناضل حتى رد إليه أنفاس صحته، فتفتح من جديد يستقبل الفجر بعد ليل طال ، ونهض لكى يغذ السير على الطريق الصاعد إلى « عصر شوقى » ، كما تفتح وجودنا القومى مهيئًا للانطلاق من عصر عرابى إلى عصر مصطفى كامل . . .

وحُداة الركب من رواد اليقظة ، لم يدركوا مطلع الفجر ، بل مضى عرابى دون أن تحقق الأمة خلاصها من أصفاد الرق وبراثن الطغيان ، ومضى الأفغانى ومحمد عبده دون أن يتحرر الفكر الإسلامى من جموده ، ومضى قاسم أمين دون أن تحطم المرأة قيودها وتنطلق من وراء أسوار الحريم .

وكذلك مضى البارودى دون أن يدرك الشعر مشارف الأفق الجديد .

لأن طبيعة المرحلة لم تكن تحتمل أن يتم شىء من هذا كله ، قبل أن يبرأ

كيان الأمة من سقمه وأوصابه ، ويرفض القيود والأصفاد التي تغل حركته ، وتنجاب غواشي الظلمة التي تحجب الرؤية .

ودخلوا جميعاً تاريخ أمتهم : قادةَ مرحلة اليقظة ، وروادَ عصرٍ جديد أعدوها له وأضاءوا لها طريقها إليه .

• • •

وجاء شوقي العظيم فلم يدخل تاريخنا الأدبي بقصائد له قَفَّى بها على آثار الفحول القدامى ، ولا استحق مجده بأن كان تكراراً للبارودي أو امتداداً أفقياً له ، وإنما ارتقى قمة المرحلة بما أضاف إلى الشعر العربي من جديد لم يُسبَق إليه ، وما ارتاد له من أفق لم يشارفه شاعر قبله ، فاستطاع بذلك أن يعبر بوجودنا الفني شوطاً على مرقاة التطور :

امتداداً رأسياً صاعداً ، من حيث انتهى « عصر البارودي » .

وانطلاقاً إلى قمة المرحلة التي يبدأ منها « عصر ما بعد شوقي » .

• • •

ويخون جيلنا وجودَه ، إذا نحن كررنا مأساة عصور التخلف وعِشْنا بمنطقها في تقييم الأدباء بما تصل إليه محاولاتهم من تقليد السلف الكبار !

وعبث ما بعده عبث ، أن نعد قمةَ أدبنا ، مَن كلُّ همِّه أن يقلد شوقي أو الزهاوي أو المنفلوطي أو جبران أو مي . . . وأن نقيس أدباءنا بمقياس المحاكاة لرواد مرحلة مضت ، فيكون النسجُ على منوالهم مناط التفوق والامتياز والتقدير .

إن مصانع النسيج اليوم ، لا تنسج على منوال أقطاب هذه الصناعة في القرن الماضي ، وإنما تأخذ من تجاربهم ذخيرة غالية فيما تستحدث من نسيج ملائم للعصر

وشوقي لن يتكرر أبداً .

كما لن يتكرر البارودي والزهاوي وابن الفارض وأبو العلاء والمتنبي وأبو تمام .

مهما يقطعْ مقلدوهم أنفاسهم في تكرار الشوط الذي قطعه كل واحد من أولئك الكبار ، وبلغ به أقصى مداه . .

ودعاة التقليد قد يحسبون أنهم إذ يغالون فى قيمة « **النسج على منوال** » العظام من أدبائنا الماضين ، يقضون حقهم علينا من الوفاء والإكبار . .

ويغيب عنهم أن **إعادة الشوط** تعنى الإقرار بأن السالفين من أدباء القمم ، قصَّرت بهم طاقاتهم عن بلوغ شوطهم ، بحيث نحتاج إلى من يكرر المحاولة .

وذلك ما يتعلق به وهْمُ المقلدين الذين لا ترى فيهم الحياة غيرَ نسخ ممسوخة تُعوزها الأصالة وموهبة الإبداع . ويُلزمها التقليد مكانَتَها فى أدنى السفح الهابط حيث الكثرةُ من **حكاة الصدى والناسجين على منوالٍ لا جديد فيه** .

* * *

وإذا كان منطق التطور يفرض أن يضيف عصرنا الأدبى جديده ، فسذاجةٌ ما بعدها سذاجة أن يتصور بعضنا أن تطور أدبنا المعاصر يعنى أن يبدأ منطَلَقه بمعزل عن ميراثِ ماضيه .

فجديدنا لا يمكن أن يقوم على هباء ، أو أن يخطو فى فراغ تائه ليس فيه إشارة إلى معالم خطواتنا السابقة على الدرب .

ومثل هؤلاء ، كمثل من يتصور أن البشرية اليوم تتطور منطلقة من نقطة الصفر ، ضاربة فى فراغ لا أثر فيه من تجارب الماضى الطويل ، أو أنها تحاول اليوم أن تتطور إلى عصر الذرة ، بمعزل عن معالم المراحل السابقة لتطورها من عصر البخار إلى عصر الكهرباء !

والزعم بأن تراث ماضينا يعوق تطورنا ويثقل خطواتنا ، كالزعم بأن تراث البشرية من قديمها الأسطورى البعيد الذى خايلتها فيه رؤيا التحليق فى الجو على بساط الريح أو جناح الجن ، إلى أمسها القريب الذى حلقت فيه بالطائرة فوق السحاب ، يشل انطلاقها إلى عصر الفضاء والقمر !

* * *

وهناك من يدعُون إلى التحرر تمامًا من أثقال تراثنا ، على أن نملأ الفراغ بنماذج فنية ننقلها عن الأمم التى سبقتنا على الطريق .

وينسون أن الآداب الوافدة إذا جاءت على فراغ وخلاء ، لم تُجدِ على وجوده شيئًا ذا بال ، وإنما تفرض علينا أن نعيش بوجدانٍ مستعار .

والأمة تستطيع أن تنقل الثقافة والعلم ، كما تستعير ما يعوزها من ضرورات الحياة المادية، لكنها لا تستطيع أبداً أن تحيا بمزاج غريب مجلوب ووجدان أجنبي دخيل .

والذين عجبوا لاهتمام العرب ، فى حركة الترجمة الأولى ، بنقل علوم اليونان دون آدابهم . راحوا يفسرون هذا الموقف بأن الآداب اليونانية القديمة فيها وثنية ترفضها البيئة الإسلامية . وأحسب أن وراء هذا التفسير القريب ، ملحظاً أبعد وأعمق ، وهو أن الأمة الإسلامية أخذت ما أخذت من التراث العلمى للأمم القديمة، لأنها أرادت أن توسع من آفاق معرفتها وتخصب عقليتها ، لكنها تجافت عن الآداب كراهة أن تستعير وجدانا أجنبياً ، ومن ثم مضت حركة الترجمة والنقل والتعريب تغذى وجود الأمة بروافد سخية دون أن تمسخ أصالتها . فتهيأ لها بذلك أن تحمل لواء القيادة الحضارية فى العصر الوسيط .

ولعل فى هذا، ما يجيب عن سؤال الذين لفتهم التفاوت الواضح، بين عمق تمثلنا للثقافة الغربية والعلم الحديث ، وبين ضعف هضمنا للآداب الأجنبية[1].

وليس من الضرورى أن نصدر فى هذا الموقف ، أو أن يكون أسلافنا صدروا فيه ، عن وعى مدرك بأن حياتنا تقوم بعلم مستورد ولا تقوم بوجدان مجلوب، بل لعلنا نفعل ذلك تلقائياً بهدْيِ ما فى طبيعتنا من حرص على البقاء .

ومهما تَبْدُ الحاجة إلى مددٍ من الآداب والفنون الأجنبية، فيجب أن يكون واضحاً أن حياتنا لا تستغنى به وحده ، دون أن تعتمد أصالةً على أدبنا القومى . وهَبْنا قسرنا وجدان قومنا على ما نقدمه إليهم من الزاد الأجنبي ، فسيظل عصياً على هضمه وتمثله ، ما لم يجذبنا بشىء فيه نستجيب له . . . بحيث يبدو أنه منا !

فبدلاً من أن يقسو ناقد فى الحملة على « الذين قضوا منا السنين الطوال بالغرب ، دون أن يتمثلوا الحياة الأوربية والإحساس الأوربى »[2] يجب أن تلفتنا هذه الظاهرة بدلالتها على جانبٍ من طبيعتنا يرفض تمثل الإحساس الأجنبى إذا لم يمت إلينا بسبب من الأسباب .

وعلى كل حال ، لا أريد أن أمضى فى الاستطراد إلى الترجمة ، بل أكتفى

---

(١) انظر : د . محمد مندور : فى الميزان الجديد ص ٤٦ .

(٢) » » » » » ص ٤٨ .

بهذه الإشارة إلى ما يتصل منها بقضية التطور ، ردًّا على دعاةِ ملء الفراغ بروائعَ من الآداب الأجنبية ، يتكئ عليها أدبٌ لنا جديد . .

وخلاصة ما أريد أن أقوله فى هذه القضية ، هو أن وجودنا الحى يفرض علينا أن نضيف جديدنا إلى تراثنا الأدبى ، فهذه هى سنة التطور .

ومن ماضينا يكون منطلَقُنا إلى مرحلةٍ تبدأ من حيث انتهى أمسها ، لتتقدم بنا خطوة نحو أفق يمتد ويرحب ويترامى كلما قطعنا شوطًا فى العروج إليه .

وإذا كان الوقوف الجامد عندما انتهى إليه أمسُنا خروجًا على قانون التطور ، فإن بتر ذلك الماضى والانطلاق من فراغ ، مسخٌ لمفهوم التطور ، بما هو تدرج الكائن الحى فى الصعود إلى أفق كماله ، وسعى دائب نحو تحقيق وجوده بكل أصالته وحيويته .

أصوات ... وأصداء

قد يكون من المجدى ، بعد الذى قدمت من رصدٍ للمناخ الفكرى، أن أنقل هنا بعض ما التقطه سمعى من أصواتٍ كنت على وعيٍ بأصدائها ، وأنا أختار موقفى من وجودنا الفكرى المعاصر .

وهذه الأصوات والأصداء منقولة من كتب منشورة لعدد من كتابنا ، مع تمييز نصوصِ أقوالهم بأقواسٍ فاصلة . وفى تقديرى أن مناقشتى لها تلقى ضوءاً على الموقف الذى اخترته ، وتعين على وضوح الرؤية لشتى التيارات التى تتصادم فى مجالنا الحيوى . . .

الخيال الشعري عند العرب

الكتاب للشاعر « أبي القاسم الشابي » وقد اغتاله الموت في عز شبابه ، فلم يدرك عصرنا الأدبي الجديد ، غير أنه عاش في صميم المرحلة التي يمكن أن نلتمس فيها المناخ الفكري لأدباء جيلنا .

وفيما أنقله من أقوال الشاعر الشابي . ما يؤكد حاجتنا إلى قيم جديدة للأدب العربي . ترد الثقة فيه إلى شبابنا الذين أنكرت أذواقُهم العصرية ما قدمتْه لهم كتبُ الأدب من مختارات تعسة، لم يروا فيها إلا سُقمَ الصنعة وعقمَ الوجدان . . .

عرفنا « أبا القاسم الشابى » شاعراً أصيلاً ملهماً . تجاوَزَ حدودَ إقليمه فرجّعت آفاق الوطن العربى أناشيده وأغانيه ، وشغَل بشعره عدداً غير قليل من الدارسين والنقاد فى المشرق والمغرب .

وقلَّ فينا من اتصل بآثاره غير الشعرية ، مع شديد حاجتنا إليها ليصح فهمنا له ونستكمل ملامح شخصيته فيما ترك لنا من آثار .

وكنت أسمع عن كتاب له فى (الخيال الشعرى عند العرب) خلتْ منه أسواقنا بعد ظهوره فى تونس فى طبعة محدودة عام ١٩٢٩ .

ولبثت أفتقده ، حتى أعادت نشرَه عام ١٩٦٣ « الشركة القومية للنشر والتوزيع فى تونس » فأتاحت لى أن أعرف ما كنت أجهل من صراع كابده الشابى بين الثقافتين العربية والغربية ، ودفعه إلى أن يقتحم معركة فكرية أخرى مع ما كان يُجهده من أعباء نضاله : شاعراً قومياً يهز الوجدان العام لأمته ويحدوها إلى الوجود الحر الكريم .

وهذا الصراع بين الثقافتين العربية والغربية يتصل من قرب بمأساة الضياع الفكرى التى ترهق جيلاً من شباب الأمة ، وتضغطهم بين شقى الرحى . وقد دأب قومنا على أن يتهموا كلَّ ثائر على القديم بالمروق ويصموه بوصمة الانسلاخ من قوميته . لكنى لا أتصور أن أحداً منهم يجرؤ على اتهام أبى القاسم بشىء من هذا . وهو الذى ناضل بكل إصرار وبسالة فى سبيل قوميته ، ومضى شهيداً من شهدائها .

وهذا هو ما يعطى كتابه (الخيال الشعرى عند العرب) قيمتَه الكبرى من حيث هو مادة صادقة لفهم أزمة هذا الجيل من شباب العرب ، ومع تقدير صدوره من شاعر لا ترقى إلى قوميته شبهة ، ولا تشوب إخلاصَه لعروبته شائبة من شك أو اتهام .

والشابى فى كتابه واضح المنهج محدد الفكرة فى كل ما تناول من موضوعه : فلقد مضى يلتمس الخيال الشعرى عند العرب : فى أساطيرهم ، وفى نظرتهم إلى الطبيعة

والمرأة كما ظهرت فى أدبهم . ثم فى فنهم القصصى . . مضى يلتمس هذا بعين تفتحت على الأفق الغربى وعقلية ارتوت بقدرٍ من ينابيع أدبه . بحيث لا يخطئ القارئ فى كل فصول الكتاب . أثر الانفعال المبهور بجمال الخيال الشعرى وحيويته وخصبه فى الأدب الغربى . مقارنًا بما بدا للشاعر من عقم الخيال الشعرى وجفافه فى الأدب العربى .

بل أكاد أقول : إننا من الفصل الأول الخاص بالخيال الشعرى فى الأساطير العربية . ندرك مذهب أبى القاسم فى المقارنة ومنهجه فى التناول . ونستبين خط سيره الفكرى فيما يتلو من فصول الكتاب . ونعرف مقدمًا ما سوف ينتهى إليه من نتائج .

ويبهرنا إخلاصُ الشاعر وحماسه فى الدعوة إلى التحرر من الجمود . كما تبهرنا جرأته فى إيقاظ قومه من فتور الغفوة وخدر النعاس . . .

بقدر ما تروعنا هذه المكابدة التى عاناها الشاعر بكل فكره ووجدانه . حين افتقد فى أرضه النبع الذى يرويه . والجذور التى تربطه بقديم له أصيل حى .

وأنت تقرأ كل الذى كتبه عن عقم خيالنا الشعرى . فلا يخامرك ريب فى أن الشاعر الشاب خاض المعركة بإيمان صادق . ليفتح آفاقًا رحبة أمام الأدب العربى و يبشر بعصر جديد .

ولم تكن مأساة الشاعر – كما قلت فى إشارتى إليه عندما تحدثت عن المناخ الفكرى لأدبائنا المعاصرين – انقطاعَ صلته بماضى تراثه وجذور وجوده . فالشابى فى كتابه قد عرف أدبنا العربى كما يعرفه زملاؤه أبناء المدرسة العربية . وكان حظه من الثقافة العربية أوفى من حظه من الثقافة الغربية ، ولكن المأساة أنه أطل على الأدب العربى من جانبه المظلم ، وتصور أنه وصل إلى النبع ، ثم عاف وِرده الآسن . . .

دون أن يدرى – رحمه الله – أنه إنما وقف عند حُفَرٍ عفنة راكدة . ليس فيها من تراثنا إلا ما اختاره جامعون ينتمون إلى العصور الوسطى مزاجًا وذوقًا . وهذه النصوص المختارة التى لا تزال تُقدم أتعس النماذج إلى طلاب الأدب العربى . قد أقامت الحجب والأرصاد بين أبى القاسم وبين النبع الصافى المغيَّب فى الظل . . .

وليس ذنب الشابى أن وَجَد فى تلك النصوص البائسة. عُقْمَ الخيال الشعرى عند العرب .

فالذى قرأه من أساطيرنا لا يعدو حقاً أن يكون « أصداء جامدة لم تتذوق لذة الخيال ، وأوهاماً شاردة لا أثر فيها لنبض الحياة وحس الوجود » ٣٣ : ٤١ [١] .

والذى قرأه من أدب الطبيعة . يؤكد له « أن العرب كانوا واقفين أمام مشاهد الكون ، لا وقفة المتهيب الخاشع المنتشى بنشوة الحسن وسكرة الجمال . بل وقفة الأخرس الذى لا ينطق ، والأعمى الذى لا يبصر ضوء النهار » ٥٣ .

وقصائد الغزل فيما وصل إليه من نصوص مختارة : « لا تتحدث عن المرأة إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر من أوصاف جسدية . ولا تمثل عنده إلا الغدر واللؤم وخساسة الطبع وحطة النفس وخبث الضمير . وقد أعياه أن يبصر ما وراء جسدها من حياة عذبة ساحرة وعالم شعرى جميل » ٧٥ .

وزاد فى عنف المأساة ، أن « أبا القاسم الشابى » كان يتناول موضوعه تناولا خطابياً ويعانيه بمزاج الشاعر ووجدانه المستثار . فأعوزه ما يحتاج إليه الدارس الناقد من يقظة الذهن وطمأنينة التأمل وضبط الفكرة من الجموح العاطفى والحماسة الخطابية . وجاءت أحكامه حادة مرسَلة يشوبها الإطلاق والتعميم. وشاعت فى أسلوبه ألفاظُ « كل ، وجميع ، وعلى الإطلاق ، ودون استثناء » وأمثال لها ، مما ينفر منه أسلوب الدرس الأدبى ولا تحتمله طبيعة منهجه :

فهو يرى أن أدب العرب — على الإطلاق — « مادى لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولُباب الحقائق » ١٠٣ .

والنظرة الدنيئة السافلة المنحطة إلى المرأة . « هى النظرة الشائعة فى الأدب العربى **كله** . والتى يتساوى فيها **جميع** شعراء العربية على اختلاف عصورهم وتباين طبقاتهم وتفاوت أوساطهم ، سواء فى ذلك عفيفهم وفاجرهم ، وأولهم وآخرهم » ٧٤ .

كما زاد فى قسوة المعاناة ، أن الشاعر ظل طوال حديثه عن الأدب العربى ، مشدودَ البصر إلى النافذة الغربية ، مبهوراً بما يلوح له على البعد من رؤى الجمال ،

---

(١) الأرقام هنا وفيما يلى ، تشير إلى صفحات كتاب (الخيال الشعرى عند العرب) فى ط ١٩٦٣ .

فى كل فصل من فصول الكتاب ، يقف ليتلو فى خشوع آياتٍ مما سحره منها ، ثم ينتفض من نشوته ليصيح فى ثورة وسخط :

« نبئونى يا سادة ، هل تجدون فى العربية من يستطيع أن يحدثكم عن تلك العواطف العنيفة التى تهز الحياة هزًّا ؟ كلا . . ولكنكم واجدون من يستطيع أن ينضد لكم من المجازات الزائفة والكنايات المتكلفة ما تعجز عن بعضه جِنُّ سليمان.

« خبرونى يا سادة ، أى شاعر عربى يستطيع أن يحدثكم عن نشوة الحب وسكرة العواطف ومعنى الأمومة ورحاب الأمل . أو يريكم هجسات القلوب وخلجاتها ؟

« كلا . . ولكنكم واجدوه وأكثر منه عند آداب الأمم الأخرى » ١٠٧ : ١٠٩ .

ونقرأ كل الذى تلاه من الشعر العربى فنعذره !

ونصغى إلى ما اختار من الأدب الفرنسى فندرك حيرته وعلة تمرده . . .

ذلك لأن الذى رواه من شعرنا ، ليس كل تراثنا .

بل إنه ، قد يكون أتعس ما فى ديوان الشعر العربى .

ولو قد اتصل بالنبع الصافى ، لما عز عليه أن يجد فيه مثلَ الذى راعه فى « الأدب الرومانتيكى الحالم المحلق فى وادى الخيال » ولما أخطأه أن يحس مثلا ، فى مرثية أبى العلاء للإنسان :

صاح هـذى قبورنا تملأ الر ... حب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأر ... ض إلا من هـذه الأجساد
سِرْ إن اسطعت فى الهواء رويدا ... لا اختيالا على رُفات العباد
وقبيح منا وإن قدم العـ ... ـهد هوانُ الآباء والأجداد
رُبَّ قبرٍ قد صار قبرا مرارا ... ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين ... من قديم العصور والآباد

مثل ما أحسه فى كلمات « لامارتين » من " صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى فى الدير ! " ٦٥ .

ولوجد فى أشواق العذريين ومواجد شعراء الصوفية ، شيئًا آخر غير ما وجده

فى الغزل العباسى والأندلسى (! ؟) « حيث قضت المدنية الفاجرة على منابع الرجولة فى الشاعر فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذباً لا تحس فيه حرارة الحب ولا صدق الهوى ، بالرغم من جمال زنته وخلابة نسقه . . » ٩٢ .

بل لعله لو ألقى السمع إلى « مواويلنا الشعبية » لوجد فيها ما يهز الحياة فينا هزاً . .

ولكنه كما قلت لم يجد إلا تلك النصوص البائسة ، وليس ذنبه أن ظلت الرائحةَ فى دنيانا ، المعترفَ بها من حُرَّاسِ القبور .

كلا . . ولا كان ذنبه أن ما قدمه إليه معلموه « لا مزية فيه للشاعر على غيره إلا فى رصانة التعبير وجمال الديباجة وخلابة الصنعة ، ويا خيبة الشعر ويا سخف الحياة ، إن كان كثير من الناس لهم عقول يفهمون بها ، ثم لا يزالون يحسبون أن رسالة الشاعر ألفاظ منمقة نضيدة وعبارات مرصعة وكلام مرصوص » ٧٤ .

« وشر من كل ذلك ، أمة تقتنى أثوابها من مغاور الموتى ، ثم تخرج فى نور النهار متبجحة بما تلبس من أكفان الجثث وأكسية القبور » ١٠٦ .

* * *

ولن يجدى شيئاً أن ترجموا أبا القاسم بحجر ، فقد أعفاه الموت من لعنة الذين يوزعون على خلق الله صكوك التكفير والغفران ، ولم يعد فى طاقتهم أن يزيفوا تاريخ شاعرٍ خاض معركة الوجود القومى والأدبى لأمته فى فدائية واستبسال ، ومضى فى عز شبابه شهيداً من شهدائها .

كما لن يجدى شيئاً أن نصيح فى شباب الجيل بمثل تلك الصيحات المبتذلة عن قدسية القديم ودنَس الفرنجة ، ولا أن نسحر عقولهم ووجدانهم ، بالحيل الساذجة عن فخامة الديباجة ونصاعة الأسلوب ووقع الرنين وإحكام الصياغة وجودة السبك . . .

كلا . .

ولا فى طاقة القوى الرجعية مجتمعة ، أن تضع عصابة على عيون الشباب وآذانهم فى عصر الترانزستور وجيل غزو الفضاء ، وأن تخنق فيهم حس الحياة وروح العصر ونبض الوجود .

وإنما الذى يجدى حقًّا أن نبذل الجهد كله ، لنقدم إلى الشباب روائع أدبنا ، ونستخلص قيما جديدة لكل رصيدنا منه ، قديمه والحديث ، ونضبط موازينه النقدية بضوابط تستجيب لمنطق الفن والحياة .

وبغير هذا لا مجال لأملٍ فى وضع حدٍّ لمأساة الضياع الفكرى التى تضغط شبابنا جميعًا بين شقّى الرحى ، وتمزقهم بين جمود عقيم كافر بالتطور لا يحس سير الزمن ودعاء الحياة ، وبين حديث طارئ يمسخ قديمنا ويجحده ، ولا يرى فيه إلا صناديق دُمى وأكفان موتى وأكسية أضرحة !

ورحم الله أبا القاسم ، ما أقسى ما كابد ، وما أفدح ما احتمل وهو يسرى فى الليل معلنًا دعاء الفجر وموقظًا إرادة الحياة !

صناديق الدُّمى
ومقابر الأنبياء

الحوار هنا مع طائفة من كتابنا السائرين غربًا . وفيه نصغى إلى أصوات المبشرين بأرض جديدة غربية، وإلى أصداء المعاول التى أهوَتْ على كل قديم لنا عريق، لاتبقى ولا تذر . وفيه ما يجلو المناخ الفكرى لمن تلقوا زادهم الثقافى من الغرب ، فعاشوا فى وطنهم أجانب غرباء .

على الوطن الكبير يخفق اللواء الموحد ، عربيّ اللون والسمت والروح ، قد ارتكزت قاعدته على أعرق ما فى وجودنا من أصالة ، وأعمق ما فى تاريخنا من جذور .

وفى ظل هذا اللواء أتابع الحديث عن وجودنا الفكرى رجاءَ أن يساير وعينا القومى فى أصالته ، ويأتلف معه لونًا وصبغة ، ومزاجًا وروحًا .

أتابع تشخيص مأساة الضياع الفكرى الذى يرهق هذا الجيل بمكابدة الصراع بين تيارات أجنبية غريبة ، وبين جاذبية الأرض العريقة التى أنبتتهم . . .

والحديث اليوم عن الأسباب القريبة المباشرة للمأساة ، أما أسبابها البعيدة فتُلتمس فيما شهدتْه دنيانا من حرص الاستعمار على أن يبتّرنا من جذورنا لكى نتوه عن أنفسنا فى مهب الريح الغربية ، ونتنفس فى جو مشبع بالغزو الفكرى .

* * *

وأحتاج لكى أجلو الموقف ، إلى أن أسترجع صدى لأصواتٍ رجّت دنيانا ، نحن أبناءَ هذا الجيل الذى لم يدرك فجرَ اليقظة ولم يعاصر رواد البعث ، وإنما أدرك الفوج الذى جاء من بعدهم .

من بين هؤلاء من استطال فترة الانتقال ، وارتاب فى جدوى المحاولة التى لاذ بها الرواد الأولون ، حين التمسوا لنهضتنا المرجوة جذوراً من ماضينا العريق .

وجلجلت أصواتٌ فى الأفق داعيةً إلى التحرر مما سمّته عتيقنا البالى ؛ ومبشرة بأرض جديدة لا تمت إليه بأدنى صلة .

وأصغت آذان فريق منا ونحن فى مطلع الصبا الباكر ، إلى أصوات المعاول تهوى فى قسوة وإصرار ، على الأسس التى أرساها فوق أرضنا ، أولئك الذين تولوا عبء إيقاظ الشرق فى داجى الظلمة ، وسهروا على مضاجع قومنا يهزونها بدعاء الفجر ، ويخايلونها برؤى مثيرة عن ماض لنا عريق ومجيد ، طوته المحن فى غيابة العصور الوسطى الإسلامية .

أصغت الآذان مثلاً . إلى صوت « إسماعيل مظهر » يقول فى مقالات بمجلة المقتطف مهداة إلى " أستاذه وصديقه . يعقوب صروف . فى عالم الأرواح " :

«لقد وطئت أقدام الجيش الفرنسوى أرض مصر وتركتها، وأهل مصر فى فجوة من كهف الزمان . بل فى أعمق فجواته : ما تحركت فيهم شاعرية ولا انفجر فيهم انفعال . ولا اهتزت لهم مشاعر . لا يعوزنا لإثبات هذه النظرية (؟ !) من دليل»[1] ..

وتشتد ضربات المعول ، على « السيد جمال الدين الأفغانى» الذى ميزه من غيره من زعماء المتدينين عند الأستاذ إسماعيل مظهر ومن ذهب مذهبه « أنه أراد أن يتخذ **من قوة** الدين سبيلاً للتأثير السياسى والدعوة السياسية القائمة حول فكرة استقلال الشعوب الإسلامية . وإعداد العدة **لمقاومة النفوذ الأوربى** فى الشرق الإسلامى (؟ !) وقد تعلم السيد جمال الدين منتحياً الأساليب العلمية العتيقة التى عكف عليها العرب منذ القرون الوسطى . فهو بذلك صورة مصغرة أو مكبرة لعصرٍ من العصور البائدة فى تاريخ الفكر الإنسانى . وهو بنزعته السياسية أشبه الأشياء فى عصره **بالهياكل الحفرية** التى تعيش بيننا بجثمانها . وإن رجعت بتاريخها إلى أبعد العصور إيغالاً فى أحشاء الزمان » .

هكذا مُسِخت أزهى عصور الحضارة الإنسانية التى حمل العرب المسلمون مشعلها فأضاءت للغرب ظلمات عصوره الوسطى . وصارت عند الأستاذ مظهر عصوراً بائدة فى تاريخ الفكر الإنسانى . مع ما يشهد به الحق التاريخى من أنها كانت من أنضر عصوره . وعلى أساسها كان منطلَقُ حركةِ الإحياء "الرينسانس" التى بدأت بها أوربا عصر النهضة الحديثة .

مُسخت لأن الذين حملوا لواء القيادة الحضارية فيها عرب مسلمون . وصارت جريمة السيد جمال الدين عند إسماعيل مظهر وأصحابه . أنه أعاد إلينا صورة مصغرة أو مكبرة من علمائنا الذين يعتز بهم تاريخ الفكر البشرى والحضارة الإنسانية . . .

وكانت تهمته، " أنه دعا إلى استقلال الشعوب الإسلامية . وإعدادها لمقاومة النفوذ الأوربى فى الشرق الإسلامى ! "

---

(١) لم أستطع أن أستخلص من هذه العبارة ، ما يدخل فى النظريات ، إلا أن يعنى بها الأستاذ مظهر « نظرية كهف الزمان » !

ثم يمضى المعول نافذاً بضرباته الحادة إلى أعماق وجودنا فى شخص جمال الدين الذى عدَّه إسماعيل مظهر « وريثَ العرب بحق فى علومهم وفلسفتهم، وقف من الرق حيث وقفوا عند النظر الغيبى . فكان كل ما دبجته يراعته أو تحرك به لسانه، مثالاً حيّاً لما اختلط من مباحث آبائه فى كتب اختلط فيها العلم بالفن. ليُخرِج من مجموعها فلسفةً هى عنوان ما بلغ الفكر الإنسانى من **تهوش وانحلال فى القرون الوسطى** . . فإذا نظرت فيما أبرز العرب من صور الفكر، من علم أو أدب أو فلسفة أو فن . وجدت أن فيها من آثار التخلخل والتشعب ما هو جدير بأن يبرز فى عصرٍ عكف فيه الفكر على طريقة الشاك الغيبى لم يعدُها إلى طريقة التحليل والنقد . ذاعت بينهم مذاهب فلسفية نقلها المترجمون، وجلُّهم من النساطرة واليهود ووثنيى حران . عن اليونانية . ولكنك لا تجد عندهم مدارس فلسفية ينسب إليهم ابتكارها » . .

وكل المذاهب الفلسفية للعرب، عند إسماعيل مظهر : « مذاهب لاهوتية (! ؟) استعانت بالفلسفة وببعض ضروبها دون بعض » .

وكل مؤلفاتهم، حتى العلمية منها، وُسمت بطابع عقليتهم : « هذه العقلية بذاتها هى التى ورثها السيد جمال الدين الأفغانى ووقفت عند الأسلوب الغيبى . وتنكبت **كل** طريق كان من الممكن أن يسلم إلى الأسلوب اليقينى » .

ولا يجدى أن تسأل الأستاذ مظهر عما إذا كانت هناك لاهوتية فى الإسلام ؟ كما لا يجدى أن تذكره بما غفل عنه من المجد العلمى الذى ازدهر فى الحضارة الإسلامية . واعترف علماء الغرب أنفسهم بأنه كان الأساس الراسخ للعلم الحديث(١) .

كذلك لا يجدى أن تلفته إلى الفرق الشاسع بين العصر الإسلامى الوسيط، بكل حيويته وازدهاره. وبين العصور الغربية الوسطى بكل ظلامها وجمودها . . .

---

(١) انظر فى ذلك مثلا : « حضارة العرب » لجوستاف لوبون – ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . « شمس الله على الغرب» للباحثة الألمانية سيجريد هونكه، ترجمة د . فؤاد حسنين . مكتبة النهضة . . .

« تاريخ الأدب الجغرافى العربى » للمستشرق الروسى كراتشكوفسكى . ترجمة د . صلاح هاشم . نشر جامعة الدول العربية. واقرأ «تراثنا بين شرق وغرب» فى كتابى «تراثنا بين ماضٍ وحاضر» ط معهد الدراسات العربية، ودار المعارف .

كلا . . لا يجدى شيء من هذا ومثله ؛ مع ما ترى من إصرار القوم على أن الحضارة حين صارت إلينا قيادتها فى العصر الوسيط ، هوت بالفكر الإنسانى إلى تهوش وانحلال ، وتنكبت كل طريق كان من الممكن أن يسلم إلى الأسلوب العلمى ! !

* * *

ومع صوت « إسماعيل مظهر ، تلميذ يعقوب صروف » ارتفع صوت « سلامة موسى » الذى لم ير فى ماضينا العربى خيراً قط ، ولا وجد فى تاريخ الحضارة الإسلامية بذرة تصلح للبقاء ، بل إنه حين نشر كتابه (هؤلاء علّمونى) لم يسمح لأى مفكر عربى أن يأخذ مكاناً ولو فى ذيل الموكب الجليل لمعلمى سلامة موسى : تولستوى وماركس وبافلوف ودستويفسكى ، وفرويد وأدلر ويونج وهافلوك أليس ، إلى آخر القائمة الأجنبية التى ليس فيها اسم عربى واحد .

وكنا نسمع هذه الأصوات فى مطلع صبانا ، ومنا من نشأ – مثلى – فى بيئة دينية محافظة ، وَصلَتْه بأمجاد الحضارة الإسلامية وروائع التراث الفكرى والأدبى للعرب ، واستشرف لآفاق المنهج الإسلامى للمعرفة ، ووعى من آيات كتاب ديننا قيما إنسانية ومثلاً عليا لا تطمح البشرية إلى أعز منها ، وحفظ كلمات كباراً لأئمة سلفوا ، قررت كرامة الإنسان وشرف العلم وحرية الكلمة ، من قبل أن تسمع الدنيا بهؤلاء الفرنجة الذين علموا السائرين غربا !

ومنا من لم يتح له شى من ذلك قط ، أثراً لنشأته فى بيئة متفرنجة مزهوة بعصريتها مفتونة بجديدها المحدث ، فهى تسلم عقلها وضميرها إلى رسُل الغرب ، وترى فيهم أنبياء العصر !

* * *

وكان من الممكن أن يتيح لنا وعيُنا القومى هضمَ الثقافات الغربية دون اتخاذها أصلاً ننسى فيه أصلنا . كان من الممكن أن نسعى إلى بناء حياتنا الجديدة فوق أرضنا ، مع إخصابها بمستوردٍ من جديد الفكر والفن . .

لكن الذى حدث فعلاً هو أن الكثرة من أصحاب القديم جمدت على قديمها فى رجعية كافرة بالتطور ، ففقدت كل صلة بالعصر والحياة . كما أن الكثرة من

أصحاب الجديد فُتِنت بمحدَثيها وفقدت كل اتصال بقديمنا ، فعز على القلة التي احتفظت برشدها واتزانها بين التيارين المتضادين، أن تحمى جمهرة الشباب العربي من مأساة الحيرة والتمزق .

وقد رأينا فى شاعرنا «الشابى» نموذجًا ممن ضغطتهم المأساة فالتمسوا الخلاص لقومهم فى تحطيم أغلال الجمود والغفلة ، ونبذِ كل قديم عرفوه .

وهناك آخرون ، انعزلوا تمامًا عن وجودنا وتراثنا ، فأرهقتهم عقدة الشعور بأن العروبة سمة تأخر وتخلف ، وأن الإسلامية لاهوتية معطلة للتطور والتقدم . وتوهموا أن خلاصنا فى انتزاع ذواتنا من أرضنا المشبعة بري الإسلام، لنزرعها فى أرض غريبة لا نَمُتُّ إليها بأدنى سبب !

ومن شاء أن يلمح أبعاد المأساة، فليقرأ كتاب الأديب « غالى شكرى »: " سلامة موسى وأزمة الضمير العربي المعاصر " نموذجًا لتفكير شباب وصلتْهم بسلامة موسى أبوةٌ فكرية وروحية، وتأثروا بالأصوات التي ترددت فى الأفق داعيةً إلى نبذ قديمنا كله ، ومبشرة بأرض جديدة لا جذور لنا فيها .

إن دعوات الإصلاح الاجتماعي والتفكير العلمى وكل ما هو من التطور والتقدم بسبب . تبدأ عند هذه الطائفة من شبابنا بسلامة موسى ، وهو قد تلقاها من الغرب مباشرة حيث سافر إلى أوربا وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، فوجد هناك طريق الخلاص ، وعاش فترة التلمذة بعيداً عن « الهياكل الحفرية فى أعمق فجوة من كهف الزمان » كنص عبارة إسماعيل مظهر !

فأى عجب فى أن يكفر أديب شاب — له تلك الأبوة فى الفكر والعقيدة — بكل ما لنا من تراث فكرى وميراث روحى ، وألا يفرق بين الأديان ورجال الدين « لأن الدين غالبًا يتمثل فى كهنته الذين يعنيهم فى الكثير أن يتجمد الوضع القائم فى قوالب حديدية أسموها : تعاليم السماء ونواميس الله، وغيرها من الأسماء الكهنوتية..

« فإذا جاء كتاب دينى ليصور ذلك المجتمع البعيد. وجب أن ندرسه من الزاوية التاريخية لا أن نطبق **تلك القيم** بصورة آلية على حياتنا الحديثة وكأننا نقوم **بعملية انتحارية** نهدف منها أن نزج بقوام مجتمعنا داخل **صناديق حديدية صغيرة لا تتسع إلا للدمى** (! !) فما كان يتسع لطفولة الجنس البشرى . لا ريب

أن يضيق عليه فى شبابه » ص ٢١٠[١] .

ثم يتناول الأديب الشاب معوله، فيهوى به على الكُتاب الذين لم يبشروا مع سلامة موسى بالأرض الجديدة « فقد تمكنت القوى الرجعية من اجتذاب أكثرهم والانحراف بهم إلى طريق مصالحها » .

وعد من هؤلاء الذين انحرفت بهم الرجعية :

« محمد حسين هيكل. إذ يدع جان جاك روسو جانباً، ويهرول إلى التاريخ **الإسلامى . يجتر منه أفكاراً بالية** » ص ٢٠ .

« وزكى نجيب محمود فى " الشرق الفنان " يتبنى أكثر النظريات رجعية فى الفكر الأوربى . حين يقسم العالم إلى شرق وغرب : الشرق محراب الروح والغرب محراب المادة . لا لشىء إلا لأن الطبيعة أرادت للشرق أن يظل شرقاً وللغرب أن يظل غرباً ! أن يفوز الشرق إلى الأبد بمركزه الاستراتيجى فى **مقابر الأنبياء** ، وأن يفوز الغرب إلى الأبد بناصية العلم والتقدم . **أى أننا يجب أن نتشح بالسواد** فقد كتب علينا التخلف فى لوح القدر الذى تخطه أنامل الدكتور نجيب محمود ، **التى فقدت الحياة** فيما يبدو » ص **١٤٣** .

ولا ألوم الكاتب الشاب، وقد قرأت كتابه كله وملء نفسى شعور بالعطف والفهم . وما نقلت الذى نقلته منه إلا لكى يرى قادة الفكر فينا، صورة صادقة لمأساة الضياع الفكرى الذى شد عقولَ طائفة من أبنائنا إلى مُحدَثِ الغرب، دون أن يُبقِى لهم على شىء يربطهم بجذورهم فى الأرض التى تبدو لهم خراباً ، وقد عرفها التاريخ زماناً صانعة للحضارة ؛ والتى مُسِخت فى ضمير هذا الشباب ووعيهم فلم يعودوا يرون فيها إلا الصناديق الحديدية للدمى ، ومتحف الهياكل الحفرية ، ومقابر الأنبياء . . .

---

(١) الأرقام هنا ، وفيما يلى ، تشير إلى صفحات كتاب : (سلامة موسى وأزمة الضمير العربى المعاصر) .

الأدب المعاصر
بين الاندماج والتميز

يستطيع الأديب المعاصر أن يصغى إلى نبض الحياة فى أضيق زقاق من قريته التى لا موضع لها على أى مصور جغرافى ، محلقاً فى الوقت نفسه فى رحاب الأفق الإنسانى فوق كل الحدود .

وجوهر المعاصرة ليس فى أن يُشغل الأديب بما يشغل به عامة الناس فى زمانه، ولكن فى أن ينفذ ببصيرته الملهمة وحسه المرهف إلى العمق الغائر تحت السطوح البادية ، ليصغى إلى النبض الوجدانى لإنسانِ العصر أينما كان . وبقدر ما يتميز العمل الأدبى تكون أصالته وفرصته للعالمية والخلود .

(٢)

المعاصرة والمكان

- إنسانية الأدب ومحليته
- الأدب المعاصر بين الاندماج والتميز
- عزلة الأديب

وجلاء المفهوم الزمنى للمعاصرة ، بما يحدد موقف أدبنا المعاصر بين الماضى والحاضر . ينقلنا مباشرة إلى النظر فى البُعد المكانى لأدبنا ، لنستبين موقفه بين الإنسانية العالمية ، وبين بيئته المحلية .

أو بمصطلح النقد الحديث : موقف أدبنا المعاصر بين الاندماج والتميّز :

الاندماج الذى يُلغى طابعه المحلى المحدود. ليكون ــ فيما زعموا ــ أدبًا عالميًّا إنسانيًّا .

والتميّز الذى يفرده عن الآداب الأخرى ، بما يحمل من طابع بيئته وسمات بلده .

والحق ألا تعارض إطلاقًا بين الإنسانية والمحلية . فالإنسان إنسان ، على سفوح الجبال وفى كهوف الأدغال أو فى منبسط السهول ومجاهل البيد...فى أحياء العواصم الكبرى أو فى أكواخ الصيادين ومضارب البدو وقرى الريف .

ويستطيع الأديب المعاصر أن يصغى إلى نبض الحياة فى أضيق زقاق من قريته التى لا موضع لها على أى مصور جغرافى ، محلقًا فى الوقت نفسه فى رحاب الأفق الإنسانى ، فوق كل الحدود .

كلا . . لا تعارض إطلاقًا بين الإنسانية فى أوسع عمومها المطلق ، وبين المحلية فى أضيق زواياها الخاصة ، وإنما ينشأ الوهم حين يتصور بعضنا أن أدبنا لن يكون عالميًّا إلا إذا انطلق من حدود بيئته الضيقة إلى العالم الكبير .

بل ربما خطر بالبال أن الوسيلة إلى عالمية أدبنا المعاصر ، هى أن يُسهم فى الأدب الغربى ويكتب باللغات الأوربية . وأنقل هنا من حوار بين الزميل « الدكتور مجدى وهبة » وبين الشاعر الإنجليزى « ستيفن سبندر »[1] :

ــ هل ترى أن الكُتاب الإفريقيين الآسيويين يستطيعون أن يسهموا فى الأدب الأوربى والأمريكى ؟

(١) كان هذا الحديث لمناسبة مرور الشاعر بالقاهرة فى مارس ١٩٦١ ، وقد نشرته جريدة الأهرام يوم ١٩٦١/٣/٢٤ .

« نعم ، هذا رأيي بالتأكيد ، لأن آسيا وإفريقيا لابد أن تلعبا دوراً تتزايد أهميته على الأيام فى حياتنا ، فإنهما أصبحتا جزءاً من عالم واحد يتلاقى فيه على قدم المساواة ما يسمى بالقارات السمراء مع القارات البيضاء » .

— هل تعتقد أنه من المستطاع أن يتم هذا ، عن طريق كتابة الإفريقيين والآسيويين باللغات الأوربية ؟

« أشك فى هذا شكاً كبيراً ، فإنه فى الوقت الذى نعيش فيه ، تتغير عبارات كل لغة تغيراً خفياً زائداً ، فكيف يستطيع كاتب فى بمباى أو نيجيريا أن يعكس هذه التغيرات فى تعبيره الأدبي بغير لغته ؟ . . .

« هناك بالطبع دائماً استثناءات ، فبعض الهنود مثل الشاب "دوم موريس" يُظهر فصاحة ورقة فى إنجليزيته يندر وجودهما عند كتابنا أنفسهم ، ولكن أرى على العموم أنه من الخطأ أن يكون الهم الأول للكاتب الإفريقى أو الآسيوى ، أن يلمع فى الأدب بعالم ينظم الإنجليزية أو الفرنسية . فمن الواضح مثلاً أن اهتمام الهنود باللغة الإنجليزية وثقافتها وضع لغاتهم وثقافتهم القومية فى مركز ثانوى حتى داخل بلادهم ، **وأنا أعتبر نفسى دولى الولاء ، إلا أننى أعتقد أنه قد يكون محزناً إذا لم تنفض آسيا وأفريقيا غبار الاستعمار إلا لتجدا نفسيهما أقل اعتباراً فى عالم ثقافة يسيطر عليه الغرب»** .

— هل ترى إذن أن يتركوا اللغات الغربية ؟

« لا .. بل أرى أن تمكُّن المثقفين الإفريقيين والآسيويين من الإنجليزية ، وإلى حد ما من الفرنسية ، ميزة كبيرة لهم ولنا جميعاً . ولكن ينبغى أن يعرفوا جيداً أن اللغات الغربية ليست بالنسبة لهم سوى أداة للتجارة والسياسة .

«وأميل إلى الاعتقاد بأن "طاغور، وليوبولد سنجور ، ودوم موريس" مجرد استثناء وليسوا قاعدة للآخرين **الذين أنصح لهم بالكتابة فى لغاتهم وتنمية ثقافاتهم حتى يبتكروا أدباً يضطر الغرب أن يتعلمه كما تعلم الشرق** من "شكسبير وراسين" . . . واليابان تقدم لنا نموذجاً لما ينبغى أن يعمل : فاليابانيون يكتبون قصصاً معاصرة باليابانية ، ولديهم مترجمون ممتازون استطاعوا أن يسبغوا على كاتب مثل "جورى ميشيما" شهرة عالمية أكبر مما لو كان كتب قصصه بالإنجليزية » .

• • •

وندع الآن موضوع اللغة ، لنقف عند السؤال عن إسهام كُتابنا فى الأدب الأوربى والأمريكى ، من حيث دلالته على فهم المجال الحيوى لأدبنا المعاصر وراء حدود بيئته ووطنه ، لكى يفرض وجوده على النطاق العالمى . على حين يرى شاعر غربى ، دولى الولاء ، أن من الخطأ أن يكون همُّ الكاتب منا أن يلمع فى عالم الأدب الإنجليزى أو الفرنسى ، ويحزنه أن نتخلى عن الطابع القومى لأدبنا ، ونلقى به عمداً فى منطقة الظل ، فكأننا لم ننفض عنا غبار الاستعمار إلا لنجد أنفسنا فى منزلة هابطة فى عالم ثقافة يسيطر عليه الغرب .

وشهادة « سبندر » لجورى ميشيما بأن قصصه اليابانية نالت شهرة عالمية أكبر مما لو كانت كتبت بالإنجليزية ، هذه الشهادة لا تعبر عن رأى خاص للشاعر الإنجليزى ، بل إنها فيما أعلم تعبر عن رأى عام لأدباء الغرب ، فالذين لقيتُهم من هؤلاء الأدباء ، يؤكدون أن الغربيين إنما يلتمسون فى أدبنا ما يعبر عن حياتنا نحن لا عن حياتهم هم! ولديهم أدباؤهم يقدمون لهم التعبير الوجدانى عن بيئاتهم بأصالة واقتدار هيهات أن يتاحا لأديب شرقى غريب ، إلا أن يكون استثناء !

وأذكر ممن لقيت ، الأديب النمساوى الكبير « ماكس رايش » الذى حرص على أن يأخذ عنا ما يقدمه إلى قومه المشوقين إلى ما يحمل طابع الشرق. وفى لقاء لى مع الأديب الإيطالى المشهور « إيجنازيو سيلونى» فى روما خريف عام ١٩٦١ ، ثم فى القاهرة فى يناير ١٩٦٢ ، عرض لى أن أسأله :

— هل فى إمكان أدبنا المعاصر أن يأخذ مكانه فى الأدب العالمى ؟

وكان جوابه :

« إن صلتنا نحن الغربيين بآدابكم غير كافية ، ولعل الذنب فى ذلك ذنبنا. وشعورنا بهذا التقصير هو الذى يجعلنا نريد أن نعرف ماذا تكتبون عن عواطف جيلكم وعن قلقه وهمومه ، وموقفه الوجدانى من الأحداث التى لم تشهد الأجيال السابقة لها مثيلاً . وعلى أساس ما نشعر به نحوكم من تعاطف ، وما نعرف لكم من ماض حضارى عريق ومن حاضر ثورى واع ، نقدر ألا شىء يحول بين أدبكم وبين المستوى العالمى » .

ثم استطرد متمهلاً عند عقدة الموقف . فقال فى ثقة وحسم :

«أرجو ألا يُفهم من هذا أن عالمية أدبكم تقتضى أو تعنى محو طابعه المحلى وسماته القومية ، فنحن نجتاز فى الوقت الحاضر مرحلة تمايز بين الثقافات والآداب بدلاً من دمجها وإذابة الفروق بينها . وهذا الموقف لم يأت عبثًا ولا كان باختيارنا ، وإنما فرضته علينا طبيعة الفروق بين البيئات ، وحكم به الواقع الذى يجعل لكل منا شخصية متميزة . والذين تطلعوا إلى الدمج الأدبى . تصوروا أن مثل هذا يمكن أن يُدرك بالقسر أو يتحقق بالعمد ، سعيًا وراء تدويل الأدب . ولكن الطبيعة تأبى أن تعترف بأدب عام لأقوام اختلفت أمزجتهم وعقلياتهم وتفاوت ميراثهم النفسى والحضارى ، ولهذا نود أن نقرأ أدبكم عربيًّا شرقيًّا متميزاً ، لأنه إنما يأخذ مكانه أدبًا عالميًّا ، بأصالته وتفرده » .

* * *

والغريب حقًّا ، أننا فى السياسة المعاصرة نعترف بالحكم المحلى ونتجه إلى تدعيمه . تقديراً للخصائص المميزة لإقليم عن آخر فى الوطن الواحد ، على حين يتداعى قوم منا بأن يتجاوز الأدب بيئته ويتجافى عن وطنه ، ليكون عالميًّا إنسانيًّا !

والواقع أننا نخلط هنا بين عالمية الأدب وإنسانيته . والأديب حين يقدم نموذجه الإنسانى من أى جنس أو لون . فليس لأحد أن يقول التجربة محصورة فى نطاق ضيق يبعدها عن جوهر الإنسانية فى عمومها المطلق . ولا دخل للإنسانية فى الموضوع ، إلا إذا زعم زاعم أن صياد همنجواى يختلف فى جوهر إنسانيته عن جندى كافكا أو مقامر دستويفسكى أو طبيب باسترناك أو ناس جوجول أو مومس سارتر أو بائس هيجو أو بخيل موليير أو فارس سرڤانتس أو العم توم لهاريت بيتشرستو . . .

وخلود الآثار الأدبية التى كتبت فى زمان غير زماننا ، يؤكد الفكرة ويجلوها : إن العمل الأدبى يحمل بلا ريب طابع عصره ، ولا يمنع هذا من بقائه بعد أن يمضى العصر وتتغير الدنيا . فكما ننفعل اليوم بآثار أدبية تأتينا من وراء العصور والآباد ، ننفعل كذلك بالأدب الأصيل يأتينا من خيام البدو أو ناطحات

السحاب ، من شطوط الأنهار أو من قمم الجبال الشامخات . . إذا أقنعنا بصدقه إلى الحد الذى يحقق المشاركة الوجدانية .

وكما لا دخل للإنسانية فى موضوع قدم الأدب أو حداثته . لا دخل لها كذلك فى مكانه ومسرحه ، ومهما تتباعد الفروق والآماد بين راكب الناقة وراكب سفينة الفضاء . فليست بحيث تمس الجوهر المشترك لشريتهما المتماثلة .

لا وجه إذن لإقحام الإنسانية فى موقف أدبنا بين المحلية والعالمية . فالتميز مظهر أصالة وآية صدق . وبقدر ما يتميز العمل الأدبى وينفرد بطابعه الخاص ، تكون فرصته للعالمية والخلود . وما أخذت « رباعيات الخيام » مكانها بين الآداب العالمية إلا بكونها فارسية صميمة . ولا عاشت شخصية «دون كيشوت» إلا بكونها إسبانية خالصة . ولا انطلقت « أنا كارنينا» إلى الأفق العالمى إلا بكونها روسية أصيلة ، ولا عبرت « رسالة الغفران » حدود المجال العربى إلى المجال العالمى ، إلا بكونها علائية متميزة .

ذلك أن إنسانية الأدب ، نادراً ما تتحقق بعيداً عن عمق المعاناة فى الملابسة الوجدانية للموضوع الأدبى .حدثًا كان أو إنسانًا أو كائنًا ما كان . وفى رحاب الإنسانية يلتقى أدباء من أقطار شتى وعصور متباعدة وأجناس متفاوتة ، عبّروا عن بيئاتهم بأصالة واقتدار ، وعاشوا هموم دنياهم فى معاناة صادقة وملابسة عميقة . واندمجت ذاتيتهم الفردية الجماعية فى الذاتية الإنسانية فجاءت أعمالهم الفنية كاشفة عن جوهر الإنسان ، فى دروب أسبانيا وحانات الفرس وسفوح كليمانجارو وقمم الأطلس ونجوع الصعيد ،أو فيوردات البلطيق وسهوب سيبيريا وقنوات البندقية . . .

فى رؤى شاعر ضرير حبيس بيته بقرية من قرى الشام ، أو خيال شاعر إيطالى فى فلورنسا . . .

وجوهر المعاصرة ليس فى أن يُشغل الأديب بما يشغل عامة الناس فى زمنه ، ولكن فى أن ينفذ ببصيرته الثاقبة الملهمة وحسه المرهف إلى العمق الغائر وراء الأبعاد الظاهرة والسفوح البادية ، ليصغى إلى النبض الوجدانى لإنسان العصر أيما كان ! ذلك النبض الذى قلما يحسه عامة الناس فيما يشغلهم من هموم العيش وصراع الوجود . . .

عزلة الأديب

مقياس المعاصرة لا يرفض أى عمل أدبى يعبر فى صدق ومعاناة وأصالة ، عن بيئة منعزلة . وكما يكون الهروب من الزحام التماساً لعمق المعاناة وأناة التمثل وجلوة التأمل ونفاذ الرؤية ، يكون أيضًا فراراً من بشاعة الواقع عن يأس منه أو رفض له ، وكلا الموقفين تعبير عن جانب من حياة إنسان العصر فى اصطدامه بواقعه .

ويعرض سؤال : أليست هناك بيئات معزولة تماماً عن مناخ عصرنا . تعيش حياتَها أقربَ ما تكون إلى المراحل البدائية للبشرية ، فهل ينتمى أدباء هذه البيئات إلى العصر الحديث الذى نعيش فيه ؟

وأجيب : أجل . رغم ما أجد من مشقة فى تصور إمكان هذه العزلة التامة فى عصرنا الذى يكتسح تياره أمنع الأسوار . وتقتحم أنفاسُه عِصيّ الحدود .

وأحسب أن ريح العصر لا يعييها أن تتسرب مع الرحالة المكتشفين والسائحين والتجار المغامرين . إلى مضارب البدو فى جوف الصحراء . ومناطق الجليد القطبية والغابات الاستوائية . ولكن إذا افترضنا أن هناك مناطق أحكمت حولها أسوار العزلة ، فإن أدباءها هم القادرون على أن ينقلوا إلينا صورة فنية لحياة قومهم ، ومن ثم يكون أدبهم وثيقة أدبية معاصرة . لها قيمتها فى استكمال الملامح النفسية والمزاجية لمن يُظلهم زماننا . وفيها نجتلى وقع الوجود على وجدانهم ، ونستبين تفسيرهم الأدبى للكون والحياة . على نحو ما يفعل مؤرخو الحضارة حين يلتمسون هناك خصائص البيئات المنعزلة ، ويرصدون خطوات الإنسان فى مراحل زمنية سابقة . ويكتشفون ما تركت من ميراثها لإنسان عصرنا .

ولست أرى أن نرفض بمقياس المعاصرة أى عمل أدبى يعبر فى صدق عن بيئة منعزلة عن زمننا .

بل الذى يرفضه المقياس هو الصور الزائفة التى ترسمها أقلامُ من لم يعيشوا هناك ، وتعوزهم أصالة التجربة وحيوية المعاناة .

والفرق واضح تماماً ، بين ما يقدمه لنا شاعر بدوى فى زمننا من وقفة على أطلال دياره فى البادية ، وبين أن يقف بنا عليها شاعر لم يبرح منزله فى الحواضر .

بل الفرق واضح كذلك ، بين أسطورة يونانية يقدمها إلينا أديب أوربى معاصر ، يمتلك سرها ويجدها فى عميق وجدانه وتراث شعبه ، وبين الأسطورة نفسها يلتقطها أديب عربى من تراث اليونان . دون أن يتمثلها ويعى سرها ورموزها . وهذا هو ما دعا الدكتور مندور إلى أن يتساءل فى (ميزانه الجديد) :

« الفن يسعى إلى خلق الحياة ، فكيف يخلق الحياة من يجهلها ؟ » ص ٩ .

فإذا قيل : إن من الأدباء من يستغنون عن التجربة المباشرة بقراءة ما كتبه الذين عاشوا فى مسرحها الأصيل ، شأنهم فى ذلك شأن من يكتب القصة التاريخية بعد أن يطالع ما وعى التاريخ من أحداث عصرها وشخصيات أبطالها .

قلنا : إن الأمر فى الحالين رهن بمدى تمثل الأديب للمسرح النائى ، وطاقته على ملابسة أحداثه ومعايشة واقعه ، واقتداره على لمح أخفى أسراره والتقاط أدق نبضاته وخلجاته ، على تنائى الأبعاد والآماد . . .

* * *

وماذا عن الأبراج العاجية وانفصال أدبها عن واقع الحياة ومناخ العصر ؟

الأبراج العازلة، قد تكون من عاج وقد تكون من فولاذ أو ما هو أصلب وأمنع من الفولاذ .

فهناك من ينسحبون من معترك الدنيا تحت ضغط أزمة نفسية ساحقة أو محنة عاتية ، ليعيشوا فى الأديرة أو الصوامع والكهوف . . والأديب من هؤلاء يقدم لنا العالم الوجدانى لنمط من إنسان العصر تحت ضغط المحنة ، وكذلك يفعل الأديب الذى يساق إلى السجن ، فتأتينا أنفاسه من وراء القضبان كاشفةً عن معاناةٍ باهظة لتجربة إنسانية هيهات أن يعرفها إلا من يكابدها .

فهل ترانا نرفض هذا الأدب ، بدعوى عزلته عن الحياة ونأيه عن العصر ؟

كلا . . بل نمضى إلى أبعد من هذا ، فنقدر أن أى أديب طليق ، فى حاجة إلى قدر من العزلة ترهف حسه وتُفسح من آفاق رؤاه، وتتيح له أن يصغى إلى دعاء الإلهام ونبض الوجود ، بعيداً عن صخب الزحام .

وفى حديثٍ لهيمنجواى قبل أن يمضى ، وقد سأله مراسل مجلة باريسية عما يبدو واضحًا من ميله إلى العزلة فى السنوات الأخيرة ، قال :

« الواقع أن هذه مشكلة معقدة ، لأنك كلما استغرقت فى الكتابة بعدت عن الناس ولم تلقهم إلا نادراً ، ولكنك فى الواقع تتصل بهم وتعيش معهم أثناء الكتابة . ووقتى أضيق من أن يفى بكل ما أريد أن أكتبه ، فإذا ضيعت جزءاً

من هذا الوقت ، فإننى أرتكب جريمة فى حق نفسى لا تغتفر »[١] .

و« هيمنجواى » قد التفت إلى أن الأديب فى عزلته عن الناس أثناء استغراقه فى الكتابة ، يتصل بهم ويعيش معهم فيما يكتب . لكنه اكتفى بعد ذلك بتبرير العزلة ، بالحاجة إلى الوقت . وعَدَّ ضياع جزء منه جريمة فى حق نفسه لا تغتفر . .

والذى أراه ، أن حاجة الأديب إلى العزلة ، ليست مسألة توفير وقت للكتابة فحسب ، وإنما هى ، بصرف النظر عن قيمة الوقت ، ضرورة لا غنى عنها للخلق الفنى . والأدباء الذين تلفهم دوامة من شواغل الدنيا وهموم العيش ، أو تفرض عليهم ظروفهم المادية والاجتماعية الخوض فى زحام الدنيا ، يُلقون إليها ظاهر سمعهم وبصرهم ، وعالمهم النفسى يهيم بعيداً لاجتلاء الرؤى المحجبة وراء أبعاد الواقع وآفاق المنظور ، فهم فى الزحام حاضرون غائبون . . .

* * *

وكما يكون الهروب من الزحام التماساً لعمق المعاناة وأناة التمثل وجلوة التأمل ونفاذ الرؤية ، يكون أيضاً فراراً من بشاعة الواقع ، عن يأس منه أو عن رفض له . وكلا الموقفين تعبير عن جانب من حياة إنسان العصر فى اصطدامه بواقعه . وإذا شاع فى بيئة من البيئات أدبُ الزهد،أو جَنَحَ الأدب إلى العزلة فهام فى عالم بعيد عن واقعه ، فليس ينبغى أن نتجافى عنه لبعده عن مناخ العصر ، وإنما الواجب أن نرصد ما وراء هذه الظاهرة من أوضاع اقتضتها واحتكمت فى اتجاه الأدب إليها.

ذلك أن ما يبدو من عزلة الأديب عن مجتمع عصره ، قد يكون فى حقيقة الأمر التزاماً صارماً بقضية هذا المجتمع . ومن ثم لا تكون عزلة الأديب مظهراً لسلبيته ، بقدر ما هى تعبير صريح عن موقفه ، ورفض جهير معلن ، لأوضاع لا يرضى عنها أو لا يستطيع أن يسايرها . .

ولعل مثل هذا الأديب ، قادر على أن يخوض وهو فى صميم عزلته ، معركة وجود أمته ، وأن يقدم لها من وراء الجدران أدباً حياً نابضاً بروح العصر ،

---

(١) كان هذا الحديث مع الصحافى جورج بليمتون مراسل « باريس ريفيو » وقد نشر الأهرام ترجمته فى ١٩٦١/٧/٢١ .

معبراً عن معاناة إنسان مرهف الحس . اختار هذا الموقف للنضال كما يختار سياسي مجاهد سلاح العصيان المدنى فى مقاومته للاستعباد والطغيان .

وأعترف بأنى أدين لشاعرى« أبى العلاء » بتصحيح فكرتى عن عزلة الأديب، حيث تعطينا آثاره الأدبية نماذج فذة لأديب يعيش فى أبراج أصلب من الفولاذ : امتحنه القدر بالعمى طفلاً ، فألقى بينه وبين الدنيا حجاباً أصم كثيفاً من حالك الظلام ، ثم انسحب من المعترك شاباً ، فلزم داره بمعرة النعمان نحو نصف قرن من الزمان ، لا يذكر التاريخ أنه تخطى عتبتها إلا مرة واحدة لم تتكرر ، فى سفارته لأهل المعرة لدى « صالح بن مرداس » وقد حملته مروءته على أن يستجيب لرجاء قومه ، فخرج وهو لهذا الخروج كاره ، ثم آب من يومه فأقام فى محبسه لم يبرحه إلا يوم حملوه فشيعوه إلى مضجعه الأخير فى ثرى المعرة .

ولكن تلك الحواجز العاتية ، لم تعزل وجدانه عن العصر ، ولم تسدل على بصيرته الغطاء ، بل عاد مع العزلة وبها ، مرهف الحس يقظ الشعور طليق التأمل ثاقب البصيرة ! فجاءت آثاره مؤكدة أنه البصير الذى خبر واقع الدنيا كما لم يخبره الغارقون إلى أذقانهم فى خضمها ، المعتزل الذى خاض معركة الحياة كما لم يخضها الضاربون فى غمارها التائهون فى زحامها .

ولم يكن انسحابه من الدنيا سلبية منعزلة ، بل كان احتجاجاً عملياً على فساد البيئة ،ورفضاً صارماً لأوضاع لئيمة تسود عصره .. وهكذا يطل علينا أبو العلاء من وراء عشرة قرون . فنراه فى سجونه الثلاثة الأديبَ المناضل الحر ، الذى اشترى بكل الدنيا أمانة الضمير وشرف الكلمة وشجاعة الرأى .

وهذا الموقف ، يوجهنا مباشرة إلى النظر فى قضية الالتزام وما يثار من خصومة فيها بين القائلين بالفن للفن ، والقائلين بالفن للمجتمع .

(٣)

الأدب المعاصر
وقضية الالتزام

- الالتزام والإلزام
- الفن للفن ، والفن للمجتمع
- حرية الأديب
- ثورية الأدب والالتزام
- حوار حول الثورة والأدب

الالتزام والإلزام

الالتزام قديم قدمَ الفنّ نفسه، لكن احتدام الصراع المذهبي فى السياسة المعاصرة نقل القضية إلى دوامة هذا الصراع .

والخصومة فى الالتزام ، لم تنشأ إلا عن خلط بينه وبين الإلزام .

والالتزام إذا كان معناه أن يتصدى الأديب للنضال الفنى عن قضايا قومه فالذى يعرفه التاريخ أن مثل هذا الالتزام قديم قدم الفن نفسه ؛ فمنذ بدأ الإنسان يعبر عن وجدانه تعبيراً فنيًّا بالكلمة أو النغم أو الرسم والنحت ، كان هناك دائمًا من يحملون عبء النضال عن وجود الجماعة ، وينفذون بحسهم المرهف إلى ما فى أعماقها من هواجس وهموم ، ويتطلعون إلى البعيد والخفى من أمانى طموحها .

وهل كانت وظيفة شعراء القبائل ، إلا التزامًا بتبعة وجودها ، ومسئولية قيادتها ، وأمانة قضاياها ؟[1]

وإن كان معناه التزامَ الأديب بمسايرة وضع سائد فى مجتمعه ، وتأييد نظام مقرر على قومه ، فكذلك كانت الجمهرة الغالبة من الأدباء فى كل عصر وكل مجتمع ، تساير الأوضاع السائدة وتتولى لها مهمة التعبئة الوجدانية عن طريق الإعلام والتبرير أو التخدير والتزوير .

فإن قُصد بالالتزام أن يكون الفن سلاحًا فى أيدى السلطة الحاكمة فردية أو حزبية ، فذلك ما عرفه التاريخ أيضا فى الكثرة الكاثرة ممن ملئوا الميدان الأدبى على مر العصور واختلاف الحكام ، حيث كانت الوظيفة الرسمية المعترف بها لأصحاب الكلمة هى أن يكفلوا للحكام السلطانَ الأدبى على وجدان المحكومين . . .

أى جديد إذن جعل القضية تشغل أفقنا المعاصر فتلفنا فى دوامة عنيفة من الجدل والخصومة والخلاف ؟

جَدّ أن احتدام الصراع المذهبى فى السياسة المعاصرة ، نقل القضية إلى صميم المعترك ، وسلط المجهر على الأعمال الفنية ليرقب موقف الأديب من هذا الصراع .

وانقسم الأدباء والنقاد شيعًا وأحزابًا ، يعكسون فى خصومتهم صخب المعركة المذهبية .

* * *

(١) انظر شاعر القبيلة ، فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

ويمكن القول بأن الانتصار التاريخى للحزب الشيوعى ، كان من أقوى الدوافع التى نقلت القضية من مجالها الأدبى المحكوم بقوانين الفن وموازينه ، إلى المجال المذهبى المحكوم بقوانين مادية .

وبعد أن كان الأديب هو الذى يختار موقفه : فيعبر عن ذاتيته فرداً ، أو يلتزم بأمانة النضال عن قومه وحماية وجودهم ، أو يبيع وجدانه وضميره لمن يدفع الثمن .

صار مطلوباً منه أن يمارس عمله الفنى من خلال المذهب، وأن يقف وراءه داعية مبشراً ، تحت رقابة صارمة تجعل من الالتزام إلزاماً .

واشتدت الرقابة فى عهد « ستالين » فرفضت كل فن لا يخضع لهذا الإلزام خضوعاً صريحاً مباشراً ، وتمادت فى صرامتها إلى حد المصادرة لحرية الأديب فى أن يحوم حول الأساطير ، كيلا يتخذ منها ذريعة لستر موقفه ، كما رأت فى "الرومانتيكية" تحايلاً للهروب من الواقع .

ولكن التجربة كشفت عن خطأ هذا الإلزام وخطره ، فجاءت الأعمال الفنية مختنقة بأغلال القيود المفروضة ، وأعوزتها حرارة الإيمان وصدق التعبير وانطلاق الحركة .

وبدلاً من أن يؤدى الفن دوره الفعال فى خدمة الحياة وقيادتها ، انفصل عنها وصار مجرد أداة تعليمية للدعاية المباشرة .

وبدلاً من أن يحقق غايته من السيطرة على وجدان الجماهير، فقد سلطانه عليها .

* * *

وكان رد الفعل فى الأدب بعد "عصر ستالين" محاولتَه العنيفة لاسترداد فنيته الجمالية التى أودها الاختناق بالمادية، وحريتَه المهدرة التى سلبتها أغلالُ الإلزام، وصدقَه الفنى الذى بددته الواقعية المزورة :

وصار شعار الفن الماركسى الجديد ، أن يكون فنًّا أولاً ليسترد سحره وسلطانه على وجدان الجماهير ، وينهض بمهمته فى خدمة المجتمع والمذهب .

* * *

الفن للفن
والفن للمجتمع

الفن لا يمكن أن يمارس عمله الجليل فى الحياة والمجتمع ، ما لم يكن أولاً وقبل كل شىء فناً . والفصل بين فنية الأدب واجتماعيته ، شذوذ فى منطق الحياة والفن ، كليهما .

هل كان هذا التحول فى الفن الماركسى ، مجرد تحرر من ضغط الاختناق فى عهد ستالين ، يساير التحول المذهبي فى السياسة والاقتصاد ؟

أو بتعبير أوضح : هل كان التحول الفنى انعكاساً للتحول فى الواقع المادى ، ومن ثم يظل الفن حيث وضعه « ماركس » صدًى للمادة وتابعاً لها ؟

كلا . . .

بل هو فيما أرى، تحول فرضه نضال الفن عن وجوده الأصيل ومكانه القيادى فى الحياة . بعد أن كشفت التجربة عن عقم تبعيته للمادة ، وخطر عبوديته لها !

كما فرضه التنبه إلى ما شاب القضية من أخطاء فى فهم معنى الالتزام، وحقيقة الواقعية وجوهر الحرية ، فى المجال الفنى :

فالفن لا يمكن أن يمارس عمله الجليل فى الحياة والمجتمع ، ما لم يكن أولاً وقبل كل شىء فنًّا . .

والفصل بين فنية الأدب واجتماعيته ، شذوذ فى منطق الحياة والفن معاً .

والخصومة فى الالتزام ، لم تنشأ إلا عن خلط بينه وبين الإلزام .

وواقعية الأدب ليست تسجيلاً للواقع وانحصاراً فيه ، وتبريراً له أو تزويراً فيه ، بل هى موقف فكرى حر للأديب من ذلك الواقع ، وانطلاق به إلى وجود أفضل وأفق أرحب .

والذين يريدون أن يجندوا الأدب لخدمة المجتمع عن طريق الإلزام، ينسون أن مهمته القيادية فى الجماعة لا يمكن تصورها إلا مع جبرية الالتزام ، لا الإلزام .

وأعنى بالجبرية هنا ، أنها مفروضة على الأديب تلقائياً ، من طبيعة رسالته ومسئولية ضميره .

وهو لا يتلقى هذه المسئولية من خارج ، ولا يأمره بها آمرٌ ، مَن كان .

لأن الأديب ، أو الفنان ، هو وجدان الأمة فى أصفى نقائه ، وضمير الجماعة

فى أرهف حساسيته ، ولا توجد سلطة أعلى من سلطته فى مركز القيادة الوجدانية ، يتلقّى منها التوجيه والحفز .

ولا يخلو موقف الأديب تجاه وضع الجماعة من أحد أمرين : إما أن يؤمن بسلامة الأوضاع فيناضل عنها من تلقاء نفسه وبمحض اختياره الحر .

وإما أن ينكر هذه النظم والأوضاع ، فيكون حمله على الالتزام بها ، إكراهـًا على تزييف موقفه منها ، وعندئذ لا يخون ضميره فحسب ، بل يفقد كذلك جوهر الفن من صدق المعاناة وعمق الانفعال . وبالتالى يفقد فاعليته . .

وإذا كان « أبو العلاء » يقدم لنا من وراء عشرة قرون مثلاً رائعًا لجبرية الالتزام من حيث هى مسئولية ضمير ،

فكذلك فعل رواد اليقظة وطلائع الثورات ، من «مونتسيكو وڤولتير» إلى «تولستوى وجوركى . . » من قبل أن تسمع دنيانا بقضية الالتزام أو تخوض فى جدلها العقيم حول الأدب الهادف وغير الهادف ، وتردد عبارات طنانة عن الفن للفن والفن للمجتمع .

وفى ضجيج العصر وصخب صراعه المذهبى والفنى ، تقدم لنا مأساة « فلاديمير ماياكوفسكى » — شاعر الثورة الروسية وكاتبها المسرحى الأول — مثلاً مثيراً لجبرية الالتزام التى تتحدى دعاة الإلزام وتبطل دعواهم ؛ لقد عاش الأديب الكبير يناضل عن مذهبه ويخوض معركته الفنية تحت شعار الواقعية الاشتراكية التى تحاصر نظرة الأديب كيلا تطل على أمسٍ مضى ، وتحدد نشاطه فى خدمة الواقع الاشتراكى دون أن ينطلق عبر الحدود . .

حتى إذا بلغ أقصى الشوط ، إلى حيث حمله التيار مع من تابعوه ، لمح فى ومضة ثاقبة خواء الفراغ الذى تصور أن يقوم منه بناء المستقبل على غير أساس ، فاهتز إيمانه بما ناضل عنه ، حين ساوره الشك فى أنه كان على حق ، إذ دعا إلى بتر ماضٍ يفرض وجوده على حاضر ومستقبل .

وتخلص بالموت من محنته ، وقيل إنه انتحر لينجو من مطاردة نقاده !

وما كان له من مطارد غير ضميره الذى ثقلت عليه وطأة الشك فيما التزم به ، فسلبته راحة اليقين وطمأنينة الإيمان !

وتاهت عبرة مأساته فى صخب الصراع المذهبي ، فكان عام ١٩٣٠ — الذى انتحر فيه ماياكوفسكي — هو بدء مرحلة التحول فى الأدب الروسى من الالتزام إلى الإلزام ، إذ مضى « ستالين » على غلوائه فوضع الفن تحت رقابة صارمة تقيده بأغلال خنقت حيويته وعطلت فعاليته ، وألزمته موقفه فى خدمة المذهب وتأييد الواقع بالأسلوب التعليمى الصريح المباشر الذى يجافى طبيعة الفن، وحرمَتْه تلقائية الالتزام التى لا تكون إلا عن عقيدة صادقة وضمير حر . . .

حرية الأديب

الحرية نقيض الإلزام
ولكنها ، كذلك ، قيود باهظة وأمانة صعبة ،
تفرضها قوانين الفن ويخضع لها الأديب الحر
دون أن تجبره عليها سلطة آمرة !

والإلزام نقيض الحرية

وعصرنا الذى يهيم بالحرية ويعدها حقًّا شرعيًّا للفرد والجماعة ، ينيط بالفن عبء الدفاع عن هذا الحق ، وقيادة الجماهير والشعوب وجدانيًّا إذ تخوض معاركها الباسلة من أجل التحرر .

فكيف يُتصور أن نعطل حرية الفن ونقيده بأغلال الإلزام ، ثم نرجوه لمثل هذه الأمانة الصعبة ؟

واختلاف النظرة إلى الحرية باختلاف البيئات والعصور ، أمر طبيعى لا غرابة فيه . ولكن يبقى هناك دائمًا أن الإنسان تطلع إلى الحرية منذ كان ، وقد مرت عليه عصور رزح فيها تحت كابوس الرق ، لكنه لم يكُف قط عن التمرد على الأغلال .

فهل كان فى تمرده إنما يلتمس النجاة من براثن الاستغلال الطبقى أو الإقطاعى أو الرأسمالى، ويتجه فى مسعاه إلى الحرية بتأثير الدوافع المادية فحسب ؟

هكذا تقول النظرية الماركسية فى التفسير المادى للتاريخ .

لكنها لا تعطينا تفسيراً مقنعًا ، لمن يدافع عن حريته بدمه ، ويدفع حياته ثمنًا لها !

ومليون شهيد فى معركة الجزائر وحدها ، رفضوا الحياة مع رقّ الاستعمار ، يكفى لأن يعطى قيمة جديدة للحرية فى عصرنا ، بحيث لا تعود مجرد صراع حول المادة أو تنازع على البقاء المادى ، إنما هى عنصر جوهرى فى إنسانية الإنسان ، لا تقوم حياته بدونها .

وأقول إنسانية الإنسان ، فأذكر على الفور أن " نظرية دارون " تقف بهذا الإنسان عند نهاية شوط طويل على مدرجة تطور استغرق ملايين السنين ليرقى من طور الحيوانية ، وأرى المادية تهبط بالإنسان عن الحيوان الذى يضيق بقيود الأسر ، ويتململ فى أقفاصه وسجونه بحدائق الحيوان، حيث الطعام وافر والحاجات المادية مقضية ميسرة . . .

ومفهوم الحرية فى الأدب والفن ، لا ينفصل عن مفهوم الحرية العامة التى يدين بها إنسان العصر .

إن الحرية لا تعنى الإباحة والفوضى والتحلل ، بل هى فى صميمها أمانة صعبة ومسئولية باهظة وقيود صارمة .

وأخطر ما تتعرض له الحرية — فى أى مجال لها — هو الجهل بتبعاتها ومسئوليتها ، واختلاط مفهومها بشوائب ضالة من الفوضى والتحلل والإفلات .

فالأصل فى الحرية على غير ما يتصور بعضنا ، أن تكون قيداً والتزاماً . وجوهر الفرق بينها وبين العبودية أن قيود الحر مفروضة عليه من تلقاء نفسه ، يلتزم بها عن طواعية واختيار ، أما قيود العبودية فيفرضها الغير قسراً ، على وجه القهر والإلزام .

وحرية الكلمة أرق أنواع الحريات لأنها أداة التعبير الحر ، ومظهر الاحترام لكرامة الإنسان فى أخص ما يميزه عن الحيوان الأعجم .

وحين تُمارَس حرية الكلمة فى المجال العام تزيد مسئوليتها خطراً ، بحكم خروجها من نطاق الحرية الفردية لشخص الأديب وحده ، لا يتجاوزه إلى سواه ، إلى النطاق الجماعى للأمة .

وهذا التقدير لحرية الأديب ، يتجه كذلك إلى حرية الناقد الأدبى ، حين يتحمل ، بمقتضى حقه فى حرية الكلمة ، تبعةَ المشاركة فى التوجيه الفكرى للأمة والتأثير على وجدانها العام ، وعلى وجودها المعنوى الذى هو مناط سلامتها وحياتها .

ولا يتصدى لهذه التبعية إلا القادر على احتمال قيودها الباهظة المقدر لجلال تبعاتها الصارمة ، وأبسط تفريط فى هذه التبعات أو تهاون بتلك القيود ، يضع الأديب والناقد دون مستوى الحرية للكلمة المسئولة قائدة وناقدة . .

لكنها قيود تفرضها قوانين الفن ، ويلتزم بها الأديب الحر دون أن تجبره عليها سلطة آمرة !

فمن الجانب الفنى ، لا تعنى الحرية إباحة المجال الأدبى لكل من هب ودب ،

أو الفرار ، باسم الحرية،من جهد البناء الفنى وعناء المكابدة الخالقة ،والتحلل من القوانين والضوابط الفنية الجمالية ، فمثل هذا التحلل إلى جانب عدوانه على الحرية ، يعطل مهمة الأدب الكبرى فى التأثير على وجدان الجماعة ، وينزع منه زمام القيادة المعنوية التى تعتمد عليها الأمة فى حماية وجودها وحراسة مُثلها .

ومن الجانب الموضوعى ، لا يجوز أن ننسى أن حرية الأديب هى حرية فرد فى مجتمع وليست حرية فرد فى الخلاء . . .

وكما أن ممارسة الأديب لحريته كاملة ، لا تنفى بحال ما التزامه بقوانين الفن ، فإنها لا تنفى كذلك مسئوليته عن سلامة المجتمع الذى ألقى إليه زمام القيادة الوجدانية .

ويقال هنا ، إن الأديب بشر غير معصوم ، يجوز عليه ما يجوز على البشرية من خطأ وزيغ وضلال ، فهو قد يخون الأمانة ويبيع ضميره ، كما قد يسىء استغلال قلمه لمنفعة شخصية على حساب أمته .

وهذا حق . .

لكن يقال معه إن الأديب إذا خان قومه ، تسقط عنه صفتُه الإنسانية ، لا الأدبية فحسب ، لأن ارتباطه بالجماعة هو مقياس إنسانيته، إذ هو ليس إنسانًا إلا بقدر ما هو مدنى ، مرتبط بالجماعة غير منفصل عنها .

ويقال معه أيضًا ، إن هذه الخيانة يقع إصرُها على صاحبها فردًا ، دون أن يمس ذلك شرفَ الحرية وكرامة الأدب ، كما أن خيانة جندى يبيع سيفه لأعداء وطنه ، تهدر حقه فى الحياة ، دون أن تمس شرف الجندية أو تصمها بالعار !

خلاصة الموقف أن للحرية فى الأدب حرمتها وقداستها ، بحيث يُعد أى عدوان عليها عدوانًا على الإنسانية . لكن بشرط أن يتحرر مفهوم الحرية فلا يختلط بالتحلل والابتذال ، ولا يلتبس بالإباحية الضالة والفوضى العشواء !

* * *

والنظر فى الأدب الثورى ، كفيل بأن يجلو مفهوم الالتزام على حقيقته : مسئوليةَ ضميرٍ وأمانةَ كلمةٍ وتبعةَ حرية . . .

وهذه قضية تستحق أن نفردها بحديث خاص، يفيها بعض حقها من العناية والدرس .

ثورية الأدب والالتزام

يأخذ الأدب مكانه أمام كل الثورات طليعة قائدة رائدة : تحدو الركب السارى وترهص بالفجر المحجب بالظلمات، عن التزام باسل حر. لكنه إذ يتخلص بعد انتصار الثورة من ضغط التحدى ، قد يستمرئ نشوة الارتياح ، فيتقهقر عن مكانه فى الطليعة ليأخذ مكاناً وراء الأحداث ، وعندئذ تشيع فيه ظاهرتا المتابعة والاجترار ، ويحدث لَبْسٌ خطير بالخلط بين مهمة الأدب ووظيفة الإعلام :

أجهزة الإعلام مهمتها دعمُ الواقع ، ومجال اختصاصها محدود بمرحلة حاضرة تقف وراء أحداثها لتتولى الإعلام بها والدعاية لها . أما الأدب فإن مهمته الأصيلة الانطلاقُ بهذا الواقع ، ومنه ، إلى غد أفضل ، ومجال عمله ممتد إلى ما بعد الواقع ، أى مرحلة المستقبل.

موضوع « الأدب والثورة » رحب وخصب ، لا يمكن أن تفي به محاضرة أو محاضرات محدودة السعة والمجال، وإنما الذي يعنينا منه هنا، هو ما يتصل بقضية الالتزام .

فكثير منا يتصورون أن الأدب يبدأ منطلَقه الثوري بعد أن تتم الثورة وتنتصر، ومن ثم يطوون كتاب الأدب قبلها ، ليبدأوا بها صفحة جديدة تتابع الدفع الثوري .

وما أريد أن أقرره هنا ، هو أن كل الثورات الشعبية ، مرت حتمًا بمرحلة تعبئة وجدانية وغليان فكري ، تولى قيادتَها جنودُ القلم والكلمة مستبسلين، عن التزام لم يفرضه عليهم أحد ، بل كان المفروضُ إلزامهم بتأييد الأوضاع التي رفضوها . . .

وتاريخ الثورات جميعًا ، بغير استثناء ، يبدأ بما نسميه مرحلة الإرهاص الثوري في الفكر والأدب ، وهي تساير مرحلة التحفز والتجمع في التاريخ القومي، وتتفاعل معها تأثيراً وتأثراً .

والالتزام هو الذي يمنح أدب هذه المرحلة ، من حيوية الانفعال وحرارة الإيمان وصدق المعاناة ، ما نخطئُ مثله في أدبٍ يبدأ ثوريته بعد انتصار الثورة !

ويصدق على الأدب هنا ، ما يصدق على تاريخ النهضات ، حيث تتألق حيوية الشعب تحت وطأة " **التحدي** " الذي يعده مؤرخ مثل «أرنولد توينبي» القوة الدافعة للبعث ،ومن ثم يأخذ أدب الإرهاص الثوري،الصادر عن عقيدة وإيمان ، مكانه في الركب الساري ، حاديًا وقائداً ومبشراً . .

على حين يتخلص أدب ما بعد الثورة من ضغط التحدي ، ويشعر بالرضى والارتياح ، فيتقهقر عن مكانه أمام الأحداث ، قانعاً بموقفه من ورائها ، مؤيداً ومتابعا ومناصراً . .

* * *

ولنلق نظرة سريعة على أدبنا وثورة يوليو ١٩٥٢ من حيث هي نموذج ومثال ،

يمكن أن يتكرر بصورة أو بأخرى فى كل ثورات التحرير التى خاضتها أمتنا على امتداد الوطن الكبير ، من وادى الرافدين إلى قمم الأطلس وسفوح أوراس .

لعلها تجلو فهمنا لثورية الأدب ، وتحدد القيمة الجوهرية لكل عمل أدبى يحمل شعار الثورة : التزامًا ومجاهدة ، أو متابعة واجترارًا ! .

* * *

على مدى سبعين عامًا وأكثر ، لم تنم مصر ليلة غير مؤرقة بالاستعمار الجاثم على حماها ، والأوضاع اللئيمة الماسخة للحياة فيها .

وعلى مدى الأعوام السبعين ، لم تفتر حركة التمرد ولم يخرس دعاء الفجر يطلقه فى ظلمة الليل الداجى مفكرون وأدباء ، سهروا على حراسة ضمير الأمة ووجدان الشعب ، كيلا يخدع بأباطيل المضللين وأقنعة المزيفين .

وشهد تاريخنا ، أن تلك المرحلة هى التى أرهصت بالثورة ، وعبرت عن السخط ونفذت إلى أعماق الأمة فوعت نبضها الحى . وقد كان كل ما يسيطر على وجدانها ويستأثر بطاقتها الانفعالية هو الخلاص من محنتها بالاستعمار المهين والفساد الذى ضرى واستشرى .

وذلك ما نهض به أدبُ الإرهاص الثورى ؛ فى قصائد وأناشيد وعاها ديوان شعره السياسى والقومى .

وفى أمثال وحكايات شعبية ، سجلت نبض وجدان الأمة فى تمردها على البغى والفساد ، ورفضِها لمنطق العبيد .

وفى قصص وتراجم تاريخية ، غذت وعينا وإباءنا بأمجاد ماضينا العريق وبطولات أجدادنا الكرام .

وفى تمثيليات وقصص ، روت قبل الثورة مأساة الإقطاع وهو فى ذروة سطوته ، وتحدت الأوضاع الفاسدة والليل داج مدلهم[1] . .

* * *

ثم ، لما آن الأوان وتحققت الثورة ، حدث تحول خطير فى موقف الأدب :

---

(١) عالجت هذا الموضوع بتفصيل أوفى ، فى بحث نشرته جامعة عين شمس فى كتاب « أضواء على السويس » مطبعة الجامعة ١٩٦٤ . .

ترك مكانه القيادى طليعةً رائدة كاشفة لمعالم الطريق الثورى، وتقهقر إلى مكانٍ خلف الأحداث يسجل ويتابع ويجتر .

وكان على الأدب أن يسبق . .

كان عليه أن يطمح ببصره إلى ما وراء الأفق ، ليلمح الأبعاد المترامية للتحول الجديد . .

لكنه آثر موقف الانتظار ، ثم المتابعة . . .

بدأ فأطلق أغانيه وقصائده بعد الحدث الكبير ، معلناً عن انفعال الفرح بالثورة . ثم تمهل يكرر نفسه ويجتر زاد أمسه ، فى انتظار إجراء ثورى جديد يؤيده ويهتف له . . .

واختلط الأمر على أكثر الأدباء ، فلم يدركوا أن لهم مهمة أخرى ، غير المهمة التى لأجهزة الإعلام .

ألغت الثورة الأحزاب ، وأسقطت الألقاب وحسمت بقايا الملكية بإعلان الجمهورية ، وقضت على الإقطاع والاحتلال .

والأدب من ورائها : يلعن مهزلة الحزبية الملغاة ، ويسخر بالألقاب المنبوذة ، ويرجم بالأحجار الاحتلالَ الساقط والإقطاع المنهار !

وهو بهذا قد أدى وظيفة إعلام ، أو لعله أدى ظاهر رسالة الأدب وتخلى عن جوهرها الأصيل : عبّـَر عن وقع الأحداث، لكنه لم يعبر عن طموح الأمة، ولم يأخذ مكانه فى قيادتها الوجدانية وهى تعبر جسر التحول، وتحتاج إلى طليعة من أدبائها ومفكريها، تكشف لها عن خفى أمانيها وآفاق تطلعها ومخاطر طريقها.

• • •

وشاعت ظاهرة **الاجترار** . .

فعلى إثر كل إجراء ثورى ، كان الأدب القومى — فى جملته — يتفنن فى اجترار ذكريات الوضع الفاسد الذى حسمه ذلك الإجراء[1] .

---

(١) سنعود إلى بيان هذا ، فى آخر الحوار التالى .

وما من شك فى أن أى ثورة شعبية ، تحتاج إلى تأييد ومؤازرة من الرأى العام ، لكى تمضى فى طريقها إلى الحياة الجديدة . والأدباء مواطنون يملكون وسيلة فعالة لهذا التأييد ، لكن على ألا نخلط هنا بين المهمة الأصيلة للأدب ، وبين وظيفة أجهزة الإعلام .

فهذه الأجهزة مهمتها الأولى دعمُ الواقع وتأييده ، ومن ثم فإن مجال اختصاصها محدود بمرحلة حاضرة ، تقف وراء أحداثها لتتولى الإعلام بها والدعاية لها ، وتعبئ كل طاقاتها ، بشرية وآلية ، لشرح كل إجراء ثورى وبيان الضرورات التى دعت إليه والنتائج المتوقعة له ، كى يكون الرأى الشعبى العام على بينة من الأمر ، فيؤدى دوره فى نجاح الإجراءات الجديدة والخطط الثورية ، عن اقتناع بجدواها .

أما الأدب ، فإن مهمته الأصيلة هى الانطلاق بهذا الواقع ، ومنه ، إلى غد أفضل . ومجال عمل الأدباء ، يمتد إلى ما بعد الواقع ، أى مرحلة المستقبل : يستشرفون له ويتولون التعبئة الوجدانية لتستبين الأمة خفى طموحها وتشق طريقها الصعب إلى بعيد مراميها وتتقى مخاطره .

• • •

وقلما يحدث التباس فى موقف الأدب قبل ثورة من الثورات ، لأن الطليعة الرائدة من الأدباء ، تدرك بحسها المرهف هموم الواقع وأمراضه وبؤسه ، وترنو ببصيرتها الملهمة إلى نور فجر جديد تحجبه ظلمات الليل ؛ فتخوض معركة الغد عن التزام باسل .

وإنما يحدث الالتباس عادة بعد الثورة ، فالأدباء لا يعدُون أن يكونوا أفراداً من شعب خاض معركته وانتصر ؛ وفى فرحة النصر يشتبه الأمر عليهم فيحسبون أن دورهم فى الحياة الجديدة أن يشدوا بأغانى الفرح وأناشيد الانتصار ، مستجيبين فى ذلك لما يهز وجدانهم ووجدان الجماهير من مواطنيهم ، من نشوة الرضى والارتياح .

ولو كانت الثورة مجرد حدث طارئ غير متوقع ، لصح الاكتفاء بهذا الموقف المعبر عن وقع الحدث على الوجدان .

لكن الثورة بمفهومها الرحب الذى لا يلتبس بالانقلاب ، ليست إلا نقطة بداية لطريق طويل صعب . وأعباء الحرية أثقل وأبهظ من أعباء الجهاد فى سبيل نيلها ، لأننا فى معارك التحرير ، نواجه عدواً نعرفه ، ونسعى نحو هدف محدد واضح ومتميز . أما بعد النصر فالموقعة كلها بيننا ، وعلى أرضنا .. والأهداف تبعد وتترامى إلى غير مدى ، كلما سرنا خطوة على طريق الحياة الجديدة التى أردناها .

ومن هنا ، كان دور الأدب صعباً :

وموضع الصعوبة فيه يأتى من حيث لا نتوقع ،فتخلُّصُ الأدب من أزمة التحدى – التى ضغطته قبل الثورة – يُشعره بالارتياح ، فيطيب له أن يعيش واقعه ويستمرىء لذة الهدوء بعد شوط مجهد ظافر ، ويفوته مكانُه فى المقدمة دليلَ ركبٍ تلوح له آفاق رحبة الأبعاد . .

والجماهير يخطئها أحياناً أن تستبين ما فى أعماقها من خفى الأسرار ومبهم الأحلام ومجهول الآمال . يحدث هذا فى عصور المحنة تحت ضغط واقعها الشقى ، أو بتأثير عملية التخدير التى تتسلط على وعى الجماهير بزائف التضليل وتنسج على بصيرتها حجاباً من الأوهام ؛ فتكون رسالة الأدب الصادق الملتزم الحر ، أن يمزق عن وعيها غشاوة الوهم وأن يكشف عن بصيرتها غطاء الزيف ، ليحدوها فى تيه مسراها بدعاء الفجر .

ولكنها فى نشوة الفرح بتحقيق بعض أمانيها الكبار . قد تتعرض كذلك لما يشبه التخدير الحائل دون رؤية ما فى أعماقها من خفى الأسرار ورؤى الطموح ، ووعيِ ما تتورط فيه من مزالق وعثرات ، ولمح ما يترصد لها من مخاطر وفخاخ . . .

حيث يُخشى عليها أن تطيل استمراء الظفر بما نالت ؛ فتلهو عما لا يزال بعيد المنال . ويكون على الأدب حينئذ أن يسهر على يقظة وعيها ويمد أفق تطلعها ، وأن يضع لها علامات الخطر على مظانّ التعثر .

حـــوار
حول الثورة والأدب

الحوار هنا مع الزميل « الدكتور لويس عوض » في مقال له عن " الثورة والثقافة " نشره في صفحة الأدب بأهرام الجمعة يوم ٦٥/٧/٢٣ لمناسبة العيد الرابع عشر لثورتنا .

وأهمية هذا المقال ، ترجع إلى كونه ممثلاً لوجهة نظر الذين يقولون إن الأدب ، والفن بوجه عام ، يبدأ منطلقه الثورى من شهر يوليو ١٩٥٢ ، وكان قبل ذلك قد هبط إلى هوة سحيقة من الفراغ والجدب .

والموضوع خاص بالأدب والثورة في مصر ، لكنه لا يعدو أن يكون — كما قلت في ثورية الأدب والالتزام — نموذجاً ومثالاً يمكن أن يتكرر بصورة أو بأخرى ، في أدب أي ثورة عربية معاصرة .

وجهة نظر أخرى :

كان من حق الزميل الدكتور لويس عوض ، أن أنقل هنا النص الكامل لمقاله عن " الثورة والثقافة " لكى أوفر له عناصر ترابطه وسياق آرائه وأفكاره، حين التصدى لمناقشته .

أما والمجال لا يسمح بهذا ، فإنى أرجو أن يرجع إلى المقال ، كل من يعنيه تتبع هذا الحوار ، وسوف أحرص ما وسعنى الجهد ، على أن أجلو سياق الفقرات التى أنقلها من مقاله ، مميزةً بأقواس ، للمناقشة .

وواضح من تقديمى لهذا الحوار ، أن لى فى " الثورة والأدب والثقافة " وجهة نظر تختلف تماماً عن وجهة نظر الزميل . ولا بأس على أحدنا أو كلينا من ذلك الخلاف ، فنحن وإن كنا ننتمى إلى جيل واحد ، وقد تقاربت خطواتنا زماناً ومكاناً فى المرحلة الجامعية بكلية الآداب ، ثم جمعتنا زمالة العمل فى الملحق الأدبى للأهرام ، يأتى اختلاف وجهات نظرنا أثراً طبيعياً محتوماً ، لتفاوتِ ما تلقته شخصية كل منا من ميراث بيئته ومؤثراتها .

* * *

وأساس الخلاف الجوهرى بيننا ، أن الزميل يقول « بفراغ رهيب التهم حياتنا الأدبية والفنية فى فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها من سنوات حتى قيام الثورة . .

« وهذا الفراغ من الناحية التاريخية يمثل الهوة التى سقط فيها الأدب العربى فى مصر بين ازدهارين كبيرين : **القديم** الذى صاحب ثورة ١٩١٩ ولازم مدّها الثورى حتى غاض ذلك المد بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ، **والجديد** الذى جاء بمجىء الثورة ولم يكن قد وُلد بعد . كان هناك فى الفترة بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٥٢ قديم لا يريد أن يموت ، وجديد لا يستطيع أن يولد » .

ولست معه فى القول بإمكان وجود ازدهار — أدبى أو غير أدبى — ينشأ من فراغ وجدب . فما من ازدهار عرفه التاريخ، لم تسبقه طلائع مرهصة به [illegible] له مستشرفة إليه . والمرحلة التى بدت لبعضنا مرحلة فراغ رهيب ، [illegible]

من أخصب المراحل فى تاريخنا الحديث ، تعبئة ثورية . والأدب فيها لم يشذ عن طبيعة المرحلة التى شهد « الميثاق » بأنها كانت — على ما يبدو من جمودها ويُظن من خمولها — من أخصب مراحل وجودنا القومى حيوية وتحفزاً . .

وما يصدق على الوجود القومى للأمة ، فى مرحلة بعينها من مراحل تاريخها ، يصدق على وجودها الفكرى والأدبى ، وإلا لما صحت دعوى " صلة الفن بالحياة " التى يعتز الزميل الدكتور لويس بأنها كانت « الشعار الذى رفعته صفحة الأدب فى جريدة الجمهورية ، عندما أسندت إليه مسئولية الإشراف على تحريرها عام ١٩٥٣ » .

ورفعتْه قبل ذلك باثنى عشر عاماً « مدرسة الأمناء »، ومن أعضائها المؤسسين عدد غير قليل من كُتاب مرحلة الازدهار الكبير .

فالقول بأن مرحلة ما قبل الثورة ، كانت حقبة جدب وفراغ ، مع ما يشهد به الواقع التاريخى من كونها مرحلة التحفز الثورى سياسيًّا وقوميًّا ، ينسخ كل كلمة تقال عن صلة الفن بالحياة ، لأنه يعنى أن الأمة كانت تتحفز لثورتها ، وفكرُها معطل ووجدانها أصمٌّ عقيم !

وإذ يبدو للزميل أن أدبنا انطلق مع الثورة وبها إلى مرحلة ازدهار كبير ، عن فراغ رهيب غاض فيه النبع إلا من قطرات جاد بها الأستاذ توفيق الحكيم على أرض خراب ليس فيها غير « بذور خفية ألقاها الدكتور لويس والدكتور مندور والأستاذ نجيب محفوظ ، فلم تر النور قط إلا بعد أن تمت الثورة وجادت عليها بالرى والهواء . . وأنقذتها من موت محقق » .

يبدو لى مما يشبه المستحيل ، أن تتم مرحلة التحفز الثورى فى ضمير الأمة ، بمعزل عن الفكر والفن !

ولا علم لى بثورة عرفها التاريخ فى مساره الطويل ، لم تسبقها طليعة فكرية وأدبية، تكفلت بتعبئة القوى المذخورة والطاقات الكامنة . وليست ثورتنا بدعًا فى الثورات التاريخية ؛ فيقال إنها جاءت على فراغ فكرى وعقم وجدانى . وليست أمتنا بدعًا فى الأمم العريقة ، ليقال إنها حققت وجودها الثورى سياسيًّا ، دون أن

تمر بمرحلة الثورة الفكرية والتعبئة الوجدانية التى يقرر التاريخ أنها طليعة كل ثورة .

* * *

وفى حساب الزميل — ومن يرون رأيه — أن رواد الفكر الثورى عندنا ، هم الذين أتاحت لهم ثقافتهم الغربية أن يتصلوا بالثورات الأوربية الحديثة وينقلوا إلينا أصداءها . وواضح أنه فى هذا الموقف ، يُطل على أفقنا من زاويته الخاصة، فلا يجذبه من رصيدنا الفكرى والأدبى لمرحلة ما قبل الثورة ، إلا ما اتصل بالفكر الغربى الجديد ونقل بذوره الثورية إلى أرضنا .

ولعل لى حقاً فى أن أطل على الميدان ، من الموقف الذى شاءت لى ظروفى أن أقف فيه ، منذ اتصلتُ بالحياة العامة فى مستهل "مرحلة الفراغ بين ازدهارين كبيرين".

وهو نفس الموقف الذى لم يتح سواه ، لجمهرة من أبناء الشعب وقفت ثقافتهم عن الثورات المعاصرة ، عند الذى قرأوه فى الكتب المدرسية عن الثورة الفرنسية ، والذى سمعوه ووعوه عن ثورة عرابى وثورة ١٩١٩ .

ذلك لأن بيئتنا الثقافية المنعزلة عن تيارات الفكر الغربى ، لم تزودنا بكلمة ما عن النظم الاشتراكية أو المذهب الشيوعى أو الثورة البولشفية. فأمضينا مرحلة التلقى والتكوين والتأثر . فى الريف والأقاليم . لا ندرى شيئاً عما يكتبه دعاة التطور وأنصار التقدم ومحرر «المجلة الجديدة» الذين أشار إليهم الدكتور فى مقاله .

وكذلك عزلتنا الثقافة المدرسية ، عن تلك البضاعة الفكرية التى كانت محرّمة فى شرعة السياسة الحاكمة .

ومع ذلك لم نكن فى حاجة قط إلى من يرهف حسنا بمأساة الشعب ونحن من صميمه . وقد تكفلت بيئتنا القومية وثقافتنا الإسلامية، بتلقيننا حقوق الإنسان وإقناعنا بكرامة البشر .

وبهذا الحس المرهف ، نزحنا من الأقاليم إلى العاصمة لتصدمنا الأوضاع اللئيمة وتجسم لنا بشاعة الفروق الطبقية وضراوة الإقطاع ومهانة الاستبداد والاستعباد .

وفى الوقت الذى كان فيه الزملاء الثلاثة محمد مندور ونجيب محفوظ ولويس عوض «يقلبون التربة انتظاراً لشئ يحدث فيأتى بالرى والهواء» كان هناك آخرون

منا لم يطيقوا مثل هذا الانتظار ولا احتملوا التشاغل بتقليب التربة ، بل اندفعوا يكتبون عن المأساة التي تؤرق ضمائرهم وتشغل بالهم فى اليقظة والمنام .

كان « الأستاذ توفيق الحكيم» يوقظ النيام من "أهل الكهف" ويسجل يومياته فى الأرياف، ويرهص بعودة الروح ،وكان «الأستاذ الدكتور طه حسين »يرهص بثورة الثقافة بحديثه عن نظرية تكافؤ الفرص وحق المواطنين فى التعليم كحقهم فى الماء والهواء ، وينشر حديث شجرة البؤس وجنة الحيوان والمعذبين فى الأرض .

وكان أستاذنا «أمين الخولى» يعبئ عقولنا وضمائرنا بشحنة ثورية ، تسرى منه إلينا متوهجة متأججة فنحمل بها عار وجودنا المهين وخطيئة الاستعمار . وكانت محاضراته ومجالسه ، تعبئة عقلية ونفسية ، فيما يصحح من مناهج تفكيرنا، ويستحدث من "فن القول" ويجلو من ملامح الشخصية المصرية "فى الأدب المصرى "ويذيع فينا " من هدى القرآن : فى الطغيان ، وفى أموالهم ، والقادة الرسل" ويخوض معركته الباسلة فى الجامعة لتمصير كلية الآداب . .

وكان سندبادنا المصرى " الدكتور حسين فوزى " يرتاد لنا آفاقاً فنية مجهولة عن " المزيكة " ويحمل لواء الدعوة إلى الثقافة الموسيقية رائداً مناضلاً . .

وكان شاعر الشعب « بيرم التونسى » ملء الميدان ، يغزو الوجدان الشعبى بأزجاله ومواويله وأغانيه . .

وكان مسرحا الريحانى ورمسيس ، يعرضان علينا المضحك والمبكى من مهازل الأوضاع ومآسى الطبقية .

وكان خالد محمد خالد يبدأ نضال قلمه الثائر بكتابه « من هنا نبدأ » ويوسف السباعى يكتب « أرض النفاق ، والسقا مات » بثورية لا مثيل لها فيما كتب بعد الثورة ، وكان عبد الحليم عبد الله يدخل الميدان بقصتيه « لقيطة ، وبعد الغروب » اللتين كررهما بصورة أو بأخرى فى « مرحلة الازدهار الكبير » وكان أحمد على باكثير يقدم أروع مسرحياته الإسلامية،وعبد الرحمن الشرقاوى يعيش بكل وجدانه فى قصة « الأرض » الطيبة الرازحة تحت كابوس الوحش الإقطاعى ، وعبد الحميد الديب يروعنا بأقسى مشاهد البؤس والحرمان ، وأحمد محرم يضج

ما . رة على الفساد السياسى ، وستعيد ذكر . . طولاتنا الإسلامية ليؤجج بها . الحماسة ، وكمال عبد الحليم يعلن الثورة . . . إصرر " .

وكان . . وكان . .

وأعتز بما كان لى من شرف الانضمام فى ذلك الركب الثائر ، فأشهد أن المرحلة التى وُصِفت بالأرض الخراب ، كانت من خصب مراحل حياتى الأدبية ، ففيما بين بدء المرحلة . ١٩٣٥ ونهايتها سنة ١٩٥٢ نشر لى الأهرام . . . المئات عن مأساة الفلا . . وظهر كتابى الأول . فى . . المصرى » عام ١٩٤٠ ، ثم كتابى « قضية . . . سنة ١٩٣٩ . وبعدها مأساة الاقطاع . . . « سيد العزبة » التى نشر . . ار لمعارف سنة ١٩٤٤ . . سرت سنة ٩٤٩ . . . « رجعة فرعون » التى ترفض الحياة بمصر فى أوضاعها قبل الثورة .

* * *

ويقول الدكتور لويس ، تأييداً لدعوى الأرض الخراب قبل الثورة . . العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل ، أتموا رسالتهم الادبية قبل عام ٩٣٦ . فلم تظهر لهم بعد ذلك إلا مؤلفات انفصلوا فيها عن واقع حياتنا ، وعادوا إلى التاريخ الإسلامى » .

والذى أعلمه علم اليقين ، أن عودة هؤلاء الكُتاب إلى التاريخ الإسلامى ، كانت اتصالاً بواقع حياتنا ، لا انفصالاً عنه ! وهم لم ينفذوا إلى وجدان الجماهير بما كتبوا قبل عام ١٩٣٦ من مطالعات ومراجعات ووحى الأربعين ، ومن جاهليات ويونانيات وفرنسيات . وإنما أخذوا مكانتهم الأدبية لدى الجماهير بما قرأت لهم بعد ذلك ، فى مرحلة الفراغ والعقم ، من عبقريات العقاد الإسلامية ، و"على هامش السيرة والفتنة الكبرى "لطه حسين ، و"حياة محمد وأبى بكر الصديق والفاروق عمر وفى منزل الوحى" لهيكل . . .

وقد سجلوا بهذا الاتجاه ظاهرة تحول مشتركة ، يلمح فيها المؤرخ الأدبى للمرحلة ، أثرَ استجابة هؤلاء الكُتاب لحساسية الشعب المرهفة ووجدانه المتدين ، وإن لم ير فيها بعض العصريين سوى رجعية كافرة بالتطور وتقليباً لأكفان الموتى

لم تكن المرحلة إذن فراغـًا مجدبـًا ،ولا يصح فى المنطق والواقع أن تكون، وهى التى بدأت بمظاهرات الطلبة ضد معاهدة ١٩٣٦ وامتدت إلى حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ إيذانـًا بانفجار البركان .

وهذه الحقيقة فرضت نفسها على الزميل من حيث لا يدرى ، فشهد فى مقاله بأن « هذه الحقبة رغم فراغها الواضح كانت فى الوقت نفسه فترة التحضير العظيم » .

دون أن يفسر لنا كيف يمكن أن تكون هكذا ، مع ما قرره من أن التربة المعتمة خلت إلا من « بذور خفية ألقاها هو ومحمد مندور ونجيب محفوظ ، ولولا هذه البذور لما كان أدب الثورة ، ولولا الثورة التى جاءت بالرى والهواء وضوء الشمس . بل بالسماد أيضـًا ، لاختفت فى بطن التربة المعتمة ولم تر النور أبداً ، ولأجهضت كالجنين إذا تعسرت ولادته » .

والحق أننى لا أفهم كيف تم التحضير العظيم لأدب الثورة ، ببذور لم تر النور إلا بعد الثورة ، ولولاها لأجهضت كالجنين إذا تعسرت ولادته !،

إن التحضير العظيم لا يكون أبداً إلا بالغليان الفكرى واليقظة الوجدانية . والتاريخ يلتمس أدب الثورة قبل الثورة ، باحثـًا عن الينابيع السخية التى أرهفت وعى الشعب ، والمشاعل التى أضاءت مسراه فى ظلمة الليل !

ينبوع الوعى الشعبى وروافده :

من أين أتيح لهذا الشعب الأمى أن يستمد زاد وعيه ونور بصيرته فى مرحلة الغضب والتحفز ؟

إن هذا الشعب كان بمنأى عن أى اتصال فكرى بالحركات الثورية وبمعزل عن دعوات التقدميين ومقالات التطوريين ؛ ممن يحسبهم بعضنا – خطأ – قادة الفكر الثورى .

وأقول الشعب ، وأنا أعنى ملايين الأميين الذين جاوزت نسبتهم قبل الثورة سبعين فى المائة من مجموع عدد السكان . والنسبة لا تعطى دلالتها الصحيحة إلا إذا ذكرنا أن الثلاثين فى المائة – التى تمثل نسبة المتعلمين – يدخل فيها كلُّ الدخلاء والمستوطنين ، وذكرنا معه أن جمهرة المتعلمين من أبناء البلد الأصلاء ، لم يتح لهم إلا التعليم الأولى الذى كان مسموحاً به وحده للفقراء . وهؤلاء بطبيعة الحال ، تقصر وسائلهم عن متابعة الفكر الثورى المعاصر ، وبخاصة إذا قدرنا أن ما يترجم منه كان يخضع لرقابة صارمة لا تسمح بإفلات كلمة مما وراء السور الحديدى !

مثقفو العاصمة والمدن الكبرى ، هم وحدهم الذين كانت تتاح لهم فرصة الالتقاء بدعاة المذاهب الجديدة ، ووسيلةُ الاتصال بتيارات الفكر المعاصر والأدب الحديث بلمسة من إصبع تدير مؤشر المذياع فينتقل بهم عبر الأثير من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، خفيةً عن أعين الرقباء الساهرين على منع البضاعة المحرمة !

على حين كانت الغالبية من أبناء الشعب ، تعيش فى القرى والكفور والنجوع ، بمعزل عن هذا كله . والذين كانوا يسكنون فى المدن منهم ، لم تكن بيوت أكثرهم تضاء بالكهرباء ، و"عصر الترانزستور" لم يكن قد بدأ عندنا بعد .

هل نتصور إذن ، أن هذا الشعب تمثَّل فى النفر القليل من مثقفى العاصمة والمدن الكبرى ؟

أو نقول إن الوعى الشعبى ، قد أغنى عنه فى مرحلة التحفز واستجماع القوى ،

وعىُ « المتصلين بالتيار التقدمى الذى تجمَّع حول مجلة التطور والمجلة الجديدة ، قبل أن يبطش بهما القديم » كما ذكر الدكتور لويس فى مقاله ؟

أؤكد للزميل ، أن الملايين من أبناء الشعب ، لم يشعروا قط بهذا التيار ولا كان لديهم أدنى فكرة عن صراعه مع الفكر الرجعى .

وسبق القول بأن أحداً منا ، لم يدر شيئاً عن البذور الخفية التى ألقاها الدكتور لويس عوض وزميلاه ، فى أحشاء التربة المعتمة والأرض الخراب . لأن هذه البذور – بصريح اعترافه – لم تر النور قط ، قبل الثورة . .

وإذن ، نعود فنسأل :

من أين استمد الشعب زاد وعيه ونور بصيرته ورى وجدانه ؟

الذى يسجله الواقع التاريخى ،أنه كان هناك دائماً ينبوع سخى لم يَغِضْ قط ، يمد جماهير الشعب الأمى بالري الدائم ، ويفيض عليها من منهله الصافى ما يرهف وعيها ويشحذ إرادتها للنضال من أجل الوجود الكريم .

كان هناك « القرآن » مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، يُتلى فى البيوت والأكواخ والمساجد والزوايا ، وينفذ إلى أعماق القرى ونائى النجوع ومعزول البرارى ، منفرداً بالسيطرة الكاملة على الضمير الشعبى الذى لم تنفذ إليه قط ، من أى سبيل ، دعوات التقدميين ومقالات التطوريين !

وإذا كانت الأمية قد فُرضت على عامة الشعب ، وحيل بينهم وبين قراءة أى كتاب أو مجلة ، فقد بقى لهم كتابهم الدينى ينسخ أميتهم بمدد سخى من الوعى ، ويمزق عن بصيرتهم حجب الجهل وغشاوة العمى وغطاء الغفلة ، ويلح على عقولهم وقلوبهم بكلمات الله فى حقوق الإنسان وكرامة الآدميين .

وحين كانت الأمية فاشية ، والمدارس تتجافى عن القرى والأحياء الشعبية ، وتقيد الدخول إليها بلوائح أميرية ورسوم مالية ؛ كانت هناك للأميين مدرستهم الكبرى تستقبلهم وهم صبية فى المهد ، وتسهر على تثقيفهم وهدايتهم طوال مراحل العمر ، لا تصدهم عنها لوائحُ ونظم ، ولا تحتاج لكى تؤدى رسالتها إليهم ، إلى

مبنى مدرسى أو طلب التحاق أو كشف ... أو أى قيد آخر من قيود السن والقدرة ، والمستوى المادى أو العقلى :

وصدقت آية الله فينا :

«هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

وعلى هدى ذلك النور الذى لا يخبو ولا ينطفىء ، سرى الشعب فى ليله البهيم يحدوه دعاء الحق والخير ، ليحقق وجوده الحر . .

ومن ذلك المورد الصافى ، نهل الشعب ما نهل ، وهو يستجمع قواه ليرفض الطغيان ، ويرجم الاستعباد .

وفى هذه المدرسة ، تلقّى الشعب الشحنة الثورية ، فى هدى ما وعى من كلمات الله يتلوها الأميون مصبحين وممسين ، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم : تزكيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة . وتفرض عليهم ، ديناً وعقيدة ، أن يرفضوا العبودية إلا لله وحده ، وأن يقاوموا البغى والظلم والباطل ، وأن يغيروا ما بأنفسهم . . .

* * *

وإلى جانب هذا النبع السخى ، كانت هناك روافد لثقافة الأميين الشعبي : بعيدة أقصى البعد عن الكلاسيكيات والرومانسيات واللاتينيات والفرنسيات ، وندوات المثقفين ومجالس التقدميين والتطوريين ، ودعاة المذاهب العصرية المحدثة فى الفكر والأدب .

كانت هناك اجتماعات دورية لا تتخلف ، فى بيوت الله من المساجد والكنائس التى ظلت مفتوحة للشعب ، لم تجرؤ سلطة على أن تمارس فيها قوانينها لحظر التجمع إلا بإذن حكومى ،

وكانت هناك مجالس الذكر ومحافل الموالد وسهرات رمضان فى مضايف القرى ، حيث كان الشعب الأمى يصغى مبهوراً إلى السيرة النبوية بما حفلت به من مواقف البطولة فى الجهاد ضد الوثنية وبغى الطبقية .

وفى السيرة النبوية وفى غيرها من قصص الأنبياء وسير الصحابة والأئمة والقديسين والرهبان والشهداء ،كان الشعب يتلقّى التدريب النفسى ليخوض معركته ضد الباطل

بسلاح الإيمان ، ويستكمل ذخيرته المعنوية من الثقة فى النصر .

وكانت هنالك أيضًا الملاحم الشعبية التى غنى فيها الشاعر على الربابة ، فى الأحياء البلدية ومسامر القرى ونجوع الصعيد وبرارى الشمال ؛ وفى موالد أولياء الله الصالحين ؛ بطولاتِ عنترة بن شداد والزير سالم وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة . . .

إلى جانب ما شدا به أبناء الشعب على أنين السواقى ودوران الشواديف والطنابير ؛ وهزات " السقالة " وخفق الشراع ؛ من أغانينا البلدية التى صيغت من ذوب عرق الكادحين وجراح المظلومين ، ودماء الشهداء وصرير المشانق ونوح حمامة دنشواى .

أصالة الوعي الشعبي :

إن أكن قد ألححت فى بيان عزلة هذا الشعب ، فى مرحلة تحفزه للثورة عن تيارات الفكر الحديث والحركات الثورية المعاصرة ، فليس ذاك إلا تأكيدا لأصالة وعيه ، وصدوره عن ينابيع غير طارئة ولا مستوردة .

وأزيد الموقف بيانًا فأذكّر الناسين منا ، بأن جمهرة الشعب فى المرحلة ، كانت تنظر بعين الارتياب إلى كل من يفكرون غربيًا ، وربما أساءت بهم الظن فحسبتهم دعاة " فَرْنجةٍ " تمسخ شخصية الأمة وتنكر ملامحها الأصيلة .

ولم يكن الأمر بحاجة إلى اضطهاد السلطات الرجعية للتيار التقدمى ، أو ائتمارها «بالمجلة العصرية والمجلة الجديدة» كما ذكر الدكتور لويس فى مقاله ، فالشعب نفسه قد صد عنهما وقضى عليهما بالاحتجاب ، إذ اختلطت عنده دعوة «سلامة موسى» وتلاميذه إلى هجر الفصحى ، والأخذ بالبلاغة العصرية العامية والكتابة باللاتينية ، بالمكيدة الاستعمارية ضد العربية ، لسان قومية الأمة ولغة كتاب دينها ، كما اختلطت فى فهم الشعب دعوةُ التقدميين والتطوريين ، بشبهة الإلحاد ...

وعذره فى هذا أنه لم يكن يدرى عن مذهب التطور إلا إنكار الخالق سبحانه ، وأن فكرته عن المذهب الشيوعى لم تكن تتجاوز ما ذاع وشاع من جحده للدين " أفيون الشعوب "!

والمرحلة كانت تقتضى الاستبسال فى النضال عن شخصية الأمة ، عقيدةً ولسانًا ، ضد عوامل التذويب والتغريب ! وتحتاج إلى تعبئة كل طاقتها الروحية للجهاد والمقاومة ، فلا عجب أن وئدت الدعوات الوافدة ، وانحصرت بين فئة من مثقفى العاصمة . وتوقف التيار الأجنبى تاركًا المجال كله للتيار الدينى الذى كانت له السيطرة الكاملة على الوجدان الشعبى !

ويجهل تاريخنا ، من يظن أن هذا الشعب فى جمهرته العامة ، بقى جامد الضمير مخدر الحواس بصليل الأغلال ، حتى جاء دعاة التطور وأنصار التقدم فعلّموه كيف ينفعل وحرّكوه للثورة . .

ويجهل شخصية هذه الأمة، من يتصور أنها اطمأنت إلى شيء من البضاعة الفكرية المجلوبة أو انفعلت بها وهى تتأهب للاقتحام العنيد عن العوائق التى تحول دون وجودها الحر .

فمن قبل أن تسمع الدنيا بالمذاهب الحديثة والحركات الثورية المعاصرة ، كان هذا الشعب الأمى يفرض وجوده على الغزاة والطغاة من كل جنس وملة، فيحسبون له ألف حساب !

فرض وجوده ، فى ظلمات العصر التركى على « نابليون » فحاول أن يستميله بتقريب زعمائه الدينيين ، بل تظاهر بأنه يريد اعتناق الإسلام ، استجلاباً لرضى الشعب الأبى العنيد !

وفرض وجوده على الباب العالى . فكان عزل واليه « خورشيد » خضوعاً لإرادة الشعب، وكانت ولاية « محمد على » نزولا على كلمة المشايخ الذين توسل إليهم الداهية الألبانى ، بإقراره بالولاء للفلاح المصرى ، ولى نعمته كما كان يقول .

وفرض وجوده على بريطانيا العظمى من اليوم الأول للاحتلال ، فلم يطأ « ولسلى » أرض مصر حتى أذاع فى أهلها منشوراً يعد فيه باحترام عقائدهم ومساجدهم وكنائسهم . وحتى سعى « دوفرين » مسعاه لدى السلطان لإعلان مروق « عرابى » عن الدين بخروجه على طاعة ولى الأمر !

وفرض وجوده على القصر والحاكمين بأمرهم وبغير أمرهم فيه ، فما هدأ له بال ولا قر لهم قرار ، ومرت المرحلة يعصف بها عاصف من القلق .

* * *

كلا ، لم يستورد الشعب زاد وعيه من خارج ، وإنما هو سره الخالد تلقاه جيل عن جيل ، أمانة صعبة وميراثاً مفروضاً .

فالشعب الذى هزم الصليبيين وقهر التتار ، ودوخ الجبابرة ولفظ الغزاة من كل جنس وملة ؛ لم يكن بحاجة إلى من ينقل إليه مقالاً فى التطور يستثير به وعيه ، أو يستورد له شعلة ثورية من وراء السور الحديدى تشعل نخوته وتشحذ همته . وفيه ميراثه العريق تلقاه جيل عرابى عن قاهرى الصليبيين والتتار، ثم تركه

أمانة للجيل الذى حمل لواء ثورة ١٩١٩ ، وهذه بدورها تركت ميراثها وقوداً لثورة ١٩٥٢ .

فلا يقل قائل إن دعاة التقدم هزوا فى الأمة ضميراً خامداً وحواسَّ معطلة ووجداناً أصم ، فلقد قامت بينهم وبين الضمير الشعبى سدود وأسوار ، إن أفلت منها صوتٌ صدَّتْ عنه الجماهير ، وانحصر فى دائرته الضيقة المغلقة ، مكتومَ الصدى مختنق الأنفاس .

وهذا ما نحتاج إلى تقريره وترسيخه ، كيلا تخطئنا الرؤية الكاشفة لمعالم خطانا نحو الثورة ، ولا تضل مقاييسنا فى تمييز الحصاد الأدبى والفكرى لمرحلة التحدى والغضب والتحفز .

بل لعلنا فى حاجة أيضًا ، إلى أن نلمح ما تركت المرحلة من تراثها الثورى فى الجديد من أدبنا ، وهو ما أحاول بيانه فى آخر هذا الحوار .

زادنا الثقافى قبل الثورة :

فى الحديث ، عن مصادر الوعى الشعبى فى مرحلة التحفز للثورة ، ذكرت القرآن الكريم وكتب الدين وسير الرسل والأئمة والقديسين والرهبان والشهداء ، والأدب الشعبى على اختلاف فنونه وأنواعه .

ذلك قد كان بالنسبة للأميين الذين هم فى المرحلة التى تتحدث عنها أغلبيةُ الشعب ؛ أو بلغة الأرقام ، سبعون فى المائة من أبناء البلد الأصلاء ، ليس فيهم أجنبى مستوطن ، أو دخيل متمصر .

وأتحدث اليوم عن موارد الثقافة للقلة المتعلمة التى لم تجاوز نسبتها ثلاثين فى المائة من السكان ، يدخل فيهم كل المستوطنين الدخلاء الذين طاب لهم المرعى زمنًا طويلاً فى أرضنا الطيبة .

والقلة العددية فى المثقفين لا تُهَوِّن من خطر دورهم فى المرحلة،من حيث هم الطليعة القائدة والصفوة المعبرة عن وجدان الشعب، المطالبة بحراسة مقومات وجوده ، والاستشراف إلى أمانيه .

ولست بحيث أزعم أنى أؤرخ هنا للثقافة والثورة ، أو أستقصى الموضوع من مختلف نواحيه على وجه الدقة والاستيفاء ، وإنما غاية جهدى أن أسترجع ما وعته ذاكرتى من معالم خطانا على الطريق نحو الثورة ، مطلة على الميدان من موقفى ، الذى كان فى الوقت نفسه ، موقفَ بضعة ملايين من أبناء البلد الذين لم يتح لهم فى عهد التكوين والنشأة والتأثر ، أى حظ من الثقافة العصرية ، ولا كان لهم أى اتصال بما يشغل مثقفى العاصمة من جدل مذهبى وصراع فكرى ومعارك أدبية .

أتحدث أولاً عن أولئك الذين فرضت عليهم الطبقية الثقافية أن يتعلموا فى الكتاتيب والمدارس الإلزامية ومعاهد الأزهر ودور المعلمين ، وقد كانوا الجمهرةَ الغالبة من أبناء الشعب ، والعنصر المثقف الذى لا تعرف سواه النجوعُ والقرى والكفور والأحياء البلدية ، حين لم يكن لها عهد بالمدرسة الابتدائية ولا كانت بحيث تملك الوسيلة إليها .

وإذا لم يخطئنى الصواب فى استقراء الأرقام الإحصائية، فإن نسبة هؤلاء بلغت فى عام الثورة نحو تسعمائة وثمانين فى الألف من المتعلمين ، مقابل عشرين فى الألف من ذوى الثقافة العصرية .

وأرجئ إلى حين ، الحديث عن القمة العالية لأفرغ أولاً من هؤلاء الذين نسيهم الزميل الدكتور فى مقاله عن الثورة والثقافة ، وعرّفهم تاريخنا القاعدةَ الشعبية المتعلمة فى أمة تناضل عن وجودها الحر ، وتستجمع قواها لتحطم الأغلال .

من أى الموارد ، كانت هذه القاعدة الشعبية المتعلمة تتلقّى ثقافتها ؟ ماذا تعلمت فى المدرسة ، وما الذى وصل إليها من الزاد الثقافى والأدبى عن طريق الصحافة والكتب والإذاعة ؟

وأتعجل الكلام عن الإذاعة ، لأنها كانت بالنسبة إلى القاعدة الشعبية فى هذه المرحلة ، غير واضحة الأثر ، إذ كان اعتمادها على الكهرباء قبل أن يأتينا " الترانزستور " منذ سنوات معدودات فيقوم بالتوصيل الإذاعى إلى القرى والكفور والأحياء الشعبية ، التى تستضىء بالمسارج البدائية ومصابيح البترول .

ويسجل الإحصاء الرقمى للكهرباء عندنا ، أن القرن العشرين أهلَّ ، وليس فى مصر سوى أربع مدن تضاء بالكهرباء وهى « القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وبورسعيد » وقد كانت المراكزَ الحضرية الكبرى بحكم استيطان الأجانب فيها !

فإذا عبرّنا نصف قرن فى صميم العصر الحديث وشارفنا عهد الثورة «١٩٥٢» لم نجد من المنتفعين بالكهرباء فى مصر كلها غير أربعة ملايين ومائتى ألف فرد ، كثرتهم بلا شك كانت تقيم فيما كان يُعرف بالأحياء الراقية فى القاهرة والثغر ، وعواصم المديريات وكبريات " البنادر " .

فكم من هؤلاء الملايين الأربعة كانوا يملكون أجهزة " الراديو " ؟

وكم ممن يملكون هذه الأجهزة كانوا يعرفون لغة أجنبية تتيح لهم الاتصال بالفكر المعاصر على نطاق أوسع من الإذاعة المحلية ؟

وماذا عن السياسة الإذاعية التى كانت تخضع لسلطات الاحتلال والقصر والأحزاب الحاكمة ؟

أى البرامج الثقافية قدّمت ، وأى المشرفين اختارت ، وبأى المتحدثين استعانت ، وكم منهم من ملك حرية الصوت وأمانة الكلمة ، وعصِىَ على التوجيه المفروض ، وأفلت من أذن الرقابة المفتوحة وعينها الساهرة ؟

أسئلة يجب أن نستوفى الجواب عنها بأدق تفصيل وبيان ، قبل أن توضع الإذاعة فى مكانها من التاريخ الثقافى لمرحلة التعبئة الثورية . وتلك محاولة ما أظن أى باحث اتجه إليها ، ممن تصدوا للحديث عن الثورة والثقافة .

بل لم تتجه إليها — فيما أعلم — وزارة الثقافة ، على ما تهيأ لها من وسائل وما اتسع من نطاق نشاطها ومجال نفوذها .

فلندع الإذاعة إذن ، إلى أن يفتح الله لنا بابا ننفذ منه إلى محفوظات وثائقها ومخزون ملفاتها .

ولننظر فى غيرها من الموارد الثقافية للقاعدة الشعبية المتعامة من جيل التحفز الثورى .

* * *

أما عن « المدرسة » فقد فرضت علينا الأوضاع قبل الثورة ، طبقية ثقافية تمثّلت فى ثنائية التعليم التى تسير فى خطين متوازيين لا يلتقيان :

خط التعليم الابتدائى فالثانوى فالجامعة ، وجوازُ المرور فيه من نقطة البداية إلى أقصى النهاية ، الاقتدارُ المالى على دفع رسوم الدراسة وأجر التعليم ونفقاته الباهظة .

أما أبناء الفقراء — حيث القاعدة الشعبية — فلهم طريق آخر يبدأ بالكتاتيب والمدارس الإلزامية ومنها إلى المعاهد الأزهرية ومدارس المعلمين الأولية ، أقصى شوطٍ يوقف عنده طموحُ الطامحين منا وكفاح الأذكياء الموهوبين .

والبيئة التعليمية فى مدارس الشعب المجانية ، مختلفة تماماً عن بيئة المدارس التى بمصروفات ، أعنى الابتدائية وما بعدها . وهذه مختلفة أيضاً عن مدارس الإرساليات

الأجنبية التى كانت تمارس نشاطها الثقافى بمصر قبل الثورة ، دون رقيب أو حساب .

وأظننى هنا أستطيع أن أستوفى الحديث عن «المدرسة» دون حاجة إلى مراجعة المناهج . فلقد أتاحت لى الظروف أن أتلقى العلم أولاً فى الكُتاب والبيت على المنهج الأزهرى ، ثم أتممت دراسة المواد المقررة على مدارس المعلمين والمعلمات الأولية قبل أن أعود فأبدأ الطريق الآخر من أوله وأتعلم ما أجتاز به امتحان الشهادات الابتدائية والثانوية الموصلة إلى الجامعة . فكأنى بذلك قد استوفيت قدراً كافياً من الدراية بمناهج التعليم فى ثنائيته المزدوجة ، بل فى ثلاثيته الشاذة ، إذا أضفت إلى ذلك كله ما أتيح لى من اتصال بالمدرسة الأجنبية فى مصر قبل الثورة ، عندما عُينت عام ١٩٤٢ مفتشةً للغة العربية بوزارة المعارف ، فكان عملى أن أفتش على مدارس الإرساليات والبعثات الدينية الأجنبية ، فاكتملتْ لى بذلك رؤية الصورة بكل ملامحها المتناكرة وظلالها المتنافرة .

لقد كنا نذهب إلى الكتاتيب والمعاهد الأزهرية أو إلى المدرسة الإلزامية ودور المعلمين والمعلمات الأولية ، فنقطع الشوط كله دون أن نتعلم حرفاً واحداً من لغة أجنبية ، أو نشاهد أى جهاز من الأجهزة العلمية ، أو نسمع عن تجربة من التجارب المعملية .

على حين كان تلاميذ المعاهد الأجنبية لا يكادون (يفكون الخط) العربى .

والآخرون فى المدارس الأميرية بمصروفات ، يتعلمون الإنجليزية من السنة الأولى الابتدائية ثم يضيفون إليها الفرنسية فى المرحلة الثانوية ، ويتلقون دروس الطبيعة والكيمياء فى المعامل المزودة بالأجهزة العلمية ، والتى لم تكن تخلو منها مدرسة ثانوية .

ومدارس المعلمين الأولية كانت المصدر الوحيد الذى يورِّد لمدارس الشعب المجانية معلميها ومعلماتها ونظارها وناظراتها . ومعاهد الأزهر الدينية كانت المصدر الوحيد الذى يخرج وعاظ المساجد وأئمتها . وطبيعى أن هؤلاء وأولئك كانوا لا يملكون أن يفتحوا أمام تلاميذهم أى منفذ يطلون منه على العلم الحديث والثقافة العصرية ؛ فذلك كله حظ المدارس الابتدائية والثانوية ، التى كانت هيئةُ التدريس فيها من حملة الشهادات العالية .

فإن يكن قد تسرب إلى القاعدة الشعبية المتعلمة شيء من ذلك ؛ فعن طريق من استطاع من أبناء الفلاحين الوصول إلى معاهد التعليم العصرى بالعاصمة ، أثناء عطلتهم الصيفية فى القرى ، ولهؤلاء حديث يأتى بعد حين .

ثم عن طريق الصحافة والكتّاب . مؤلفًا بالعربية أو مترجمًا إليها .

* * *

وحين نذكر الصحافة مصدراً لثقافة المتعلمين وأدباء المرحلة ، لا يمكن أن نسقط من حسابنا الصحافة اليومية التى لم يشر إليها الزميل فى مقاله ، من قريب أو بعيد . وهو بحيث لا يجهل الدور الخطير للصحف اليومية فى سعة انتشارها وامتداد أثرها إلى عامة المتعلمين الذين تعيش كثرتهم فى الأقاليم والأحياء الشعبية .

ومعروف لنا تمامًا . أن الصحافة اليومية فى ماضيها القريب إلى عصر الثورة ، كانت تهتم بالمادة الأدبية والثقافية وتفسح لها من صدرها ما قد تضيق به صحافة اليوم التى هى صحافة إعلام وإعلان ، إن اتجهت عنايتها إلى شيء من أدب أو فن ؛ قصرته على أعداد أو ملاحق خاصة ، كيلا يجور على مكان الإعلان والخبر .

وأحسب أننا لسنا فى حاجة إلى انتظار بيان إحصائى عن صحُف المرحلة وعدد نسخها ونطاق توزيعها وما قدمت من مادة أدبية وثقافية ، لندرك أن صحيفة (كالأهرام) مثلاً كانت تصل إلى مئات ألوف من قراء القاعدة الشعبية ، لم يسمعوا بمجلة التطور أو المجلة الجديدة أو أبولو ومجلتى ، وهى المجلات التى ذكرها الزميل . أعلامًا ثقافية للمرحلة .

ومن هؤلاء الألوف من قرأوا (السياسة الأسبوعية) وكان لهم منها زاد ثقافى لا يجحد . بل إن من المجلات التى نسيها الزميل ما شارك فى تقديم مادة ثقافية عصرية أكثر مما فعلت المجلات التى احتفى بها وهو يقدم الحصاد الثقافى للمرحلة ، وحسبى أن أشير إلى (مجلة المقتطف) التى أتاح لها طولُ عمرها وطاقة جهازها ومستوى تحريرها ، مجالَ نفوذ ثقافى لم تصل إليه مجلات ولدت لتموت .

وأعلام كُتاب الجيل قد اتصلوا بالرأى العام-الثقافى عن طريق الصحف اليومية والمجلات المعمرة، أكثر مما اتصلوا به فيما ألّفوا من كتب : فقرّاء «المازنى»

فى البلاغ ، لا يقاس بهم من عرفوه فى "إبراهيم الكاتب ، وقبض الريح ، وحصاد الهشيم " وقراء " حديث الأربعاء " مقالات فى السياسة الأسبوعية أكثر ممن قرأوه كتاباً مطبوعاً . وما تزال هذه الظاهرة تصدق على مرحلة الانطلاق الثورى : فما من كاتب ذى شأن ذكره الزميل فى مقاله ، لم تكن الصحافة منبره الأول للاتصال بالجماهير ، وإذا كانت مسرحية لتوفيق الحكيم يشهدها رواد مسارح القاهرة ، ويقرأها مطبوعة بضعة آلاف من القراء، أو كانت قصة لنجيب محفوظ يَطبع منها بضعة آلاف نسخة ، فإن صحيفة (الأهرام) تقدمهما إلى نحو مليون قارئ على أوسع نطاق، وتتجاوز بهما العاصمة إلى أعماق الريف، وتتخطى لهما حدود الوطن العربى إلى بعيد الأقطار .

ولا يعنى هذا بحال ما ، أن (الكتاب) لم يقم بدوره الثقافى الخطير فى المرحلة ، ولكنه مجرد التفات إلى ما غاب عن الزميل وهو يستقصى الحصاد الثقافى للمرحلة ، فيسقط الصحافة اليومية وكأن لم يكن لها قط وجود ! .

* * *

وأراه فيما يتصل بالكتب تعجل الحصاد فلم يذكر إلا بضعة كتب كانت معروفة لخاصة المثقفين دون الجمهرة من أبناء الشعب . وكنت أوثر له أن يتمهل ريثما يستكمل الإحصاء المصنف للكتب التى ظهرت فى " مرحلة الفراغ الرهيب " المحدد لعدد نسخها وطبعاتها . أما وقد اكتفى بفكرة له عن الكتب مطلاً على الميدان من زاوية ثقافته ومطالعاته ، فالذى أعلمه يقيناً أن المؤلفات الإسلامية كان لها الحظ الأوفى من إقبال القراء ، والمكانُ الأول فى مكتبة المرحلة، لم تنافسها فيه كتبٌ أُلفتْ فى أى مجال آخر للثقافة أو الأدب !

ذلك لأن جمهرة المتعلمين من أبناء الشعب ، كانت تطلب زادها الثقافى فى المؤلفات التى تستجيب لما فى فطرتها من تدين ، وتلائم مناخها الفكرى . وهذا هو ما يفسر لنا ظاهرة التحول الأدبى لعدد من كبار كتابنا : بدأوا بما حسبوه جذاباً وطريفاً من موائد الثقافة الغربية قديمة أو حديثة . بل إن منهم من حمل لواء الدعوة إلى ترويج الأدب اللاتينى واليونانى أو الفرنسى والسكسونى، ثم ما لبثوا أن تحولوا إلى الموضوعات الإسلامية يؤلفون فيها ويعتمدون عليها فى كسب شهرتهم

على المستوى الشعبي ، وعلى مستوى الوطن العربي والعالم الإسلامي الرحب .

وليت شعرى كم يكون عدد قراء « ألكترا » أو « عبقرية ابن الرومى » أو « جان جاك روسو » بالقياس إلى عدد قراء « على هامش السيرة » والعبقريات الإسلامية و « حياة محمد » عليه الصلاة والسلام ؟

ومن قبل ، بدت الظاهرة نفسها فى « إسلاميات » شوقى و « عُمرية حافظ » والرصيد الضخم من الشعر الإسلامى لشعراء الجيل . ومن عجبٍ أن يقول الزميل الدكتور لويس فى حديثه عن الفراغ الرهيب إلى عام الثورة : « وإذا أردت أن تدرك مدى هذا الفراغ الذى حل بالأدب بين ١٩٣٦ و ١٩٥٢ فتذكرْ أن المنفلوطى وحافظ وشوقى ومختار كانوا قد ماتوا فى العشرينات والثلاثينات ، وأن محمد السباعى ومصطفى صادق الرافعى وزكى مبارك ، كانوا قد كتبوا أهم آثارهم قبل سنة ١٩٣٦ » .

كأنّ الأثر الأدبى يموت بموت صاحبه ! لقد ظننت أن الزميل ما اشتغل بأدب شكسبير أو أرستوفان مثلاً ، إلا وهو يحس فيهما نبضَ حياةٍ وقد رحلا عن الدنيا منذ قرون وأدهار ، فكيف لا يحس نبض الحياة فى شاعر كشوقى أوكاتب كالرافعى أو أديب كالمنفلوطى ، وهم منا وفينا ؟ إن الذى مات سنة ١٩٣٦ هو أحمد شوقى المخلوق الفانى ، أما الشاعر شوقى فما يزال ملء الحياة فينا نشدو بقصائده غناء ونشيداً ، ويعرفه عامة المتعلمين من أبناء الشعب كما لا يعرفون أحداً ممن عدهم الزميل شعراء مرحلة الازدهار الكبير .

ويا ترى هل كان قراء " فاوست ، وجراتزيلا " فى جيلنا ، أكثر من قراء " عبرات " المنفلوطى و " نظراته " و " تحت راية القرآن " للرافعى ؟

ما زلت أقول إننى لا أغفل عن القمة العالية للثقافة ، وإنما قصرت الحديث حتى الآن عن القاعدة الشعبية ، أمية ومتعلمة .

* * *

وأنظر فى المناخ الفكرى للمثقفين منا ،   مرحلة التحفز الثورى ، فأرى الزميل قد اهتم فى مقاله ، بالحصاد الأدبى والفـ المرحلة ، دون التفات إلى أهم البيئات الفكرية التى عاش فيها أدباء المرحلة وَدَ بها ، وتلقوا منها مؤثرات عقلية ووجدانية لا يهون إغفالها .

وتاريخنا يسجل أن « الأزهر » قد كان لمـ عشرة قرون ، مركز الثقل فى حياتنا السياسية والفكرية ، فهل مرت به المرحلة . انتهى زمانه وتعطل سلطانه ، فلم يبق منه إلا أثرٌ متحفٌ يزار ، وذكرى لماضٍ لى وراح ؟

و « الجامعة » التى كانت مناط أمل القادة ن رواد اليقظة ، أقاموا صرحها فينا لتكون مناراً فكرياً للأمة فى معركة الوجود الحـ . هل مرت بها المرحلة لم تشعر بمكانها ، ولا أحست لها أثراً بالسلب أو الإيجـ ؟

ذلك ما لا يهون تصوره . ولا هو مما يصح منطق العقل ، وشهادة الواقع التاريخى . . .

فالأزهر يظل دائماً ، كالعهد به لمدى قـ ن ذات عدد ، صورة للثقافة الإسلامية حسب ما يتطلبه كل عصر : دافعة أ معوقة ، حية أو جامدة .

وكما كان الأزهر مجال جهود المصلحين ـين أرادوا إصلاح حياة الأمة الإسلامية بالدين ، كان فى الوقت نفسه مشغلة الحكام ممن أرادوا تجميد الفكر الدينى وتعطيل حيويته ، وذلك بحكم الاتصال الحتـ بين السياسة فى بلدنا والدين . .

ولست أمضى مع بعيد الذكريات ، فأر ما كان للأزهر فى تاريخه الطويل من دور خطير فى الصراع المذهبى والسـ ـى والفكرى للأمة ، بل أقف عند المرحلة التى تعنينا الآن ، لأطل على مكان زهر فى وجودنا القومى والثقافى .

• • •

لم تكن السلطة الحاكمة من قصر الدوبارة ، إلى قصر عابدين أو رأس التين ، قد نسيت قط أن هذا الأزهر مركز المقاومة الوطنية عهد الاحتلال الفرنسى . . .

ولا نسيت أن « محمد على » رأس الأسرة الأ ـية الحاكمة — أو شجرة الحنظل

كما سماها مؤرخنا الجبرتى – يدين بسلطانه لما أسبغ شيوخ الأزهر على ولايته من شرعية دينية وتأييد شعبي .

بل لم تكن نسيت أن الأزهر شارك بنفوذه ورجاله ، فى ثورة عرابى الشعبية التى هزت الخديو وحماته الإنجليز هزًّا .

فكانت المحاولة الجاهدة للاستئثار بالسلطان على الأزهر ، يستقلُّ القصر بالإشراف عليه والاتصال به وتوجيهه وتعيين رجاله أو عزلهم ، ويتدخل لمقاومة كل حركة إصلاحية تنبعث من الأزهر أو تتجه إليه .

وتدخلت الأحزاب تلتمس وسيلةَ نفوذ إليه ، بل تدخلت سلطة الاحتلال تبتغى تأمين مركزها ، فاحتفلت بليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر ، ودعت شيوخ الأزهر لحضور ذلك الاحتفال الدينى الكبير فى قصر الحماية !

وما كان الأزهر ليشغل هؤلاء أو أولئك لو لم يكن بيئة ذات نفوذ خطير ، أثراً لسيادة الطابع الدينى الذى فرض وجودَه على السلطة ، فكان طلب العلم فى الأزهر ، مهربًا من السخرة فى عهود السخرة ، ومخلصًا من " الجهادية " أيام كانت تُفرض على من لا يملكون ، من أى سبيل ، تدبير واحد وعشرين جنيهًا فديةَ إعفاءٍ من الخدمة العسكرية . كما كان الأزهر كذلك مفتوح الأبواب لطلبة العلم (المجانى) مع الظفر بجراية يومية من الخبز تقيم أود الذين لا يجدون الرغيف. ثم هو طريقٌ إلى نيل شىء من الحرمة والكرامة فى عصر ضراوة الطبقية؛ بالمهابة التى يضفيها العلم الدينى على حمَلته ، فى المجتمع الشعبي .

ثم إنه كان الذى يـُورِّد إلى الشعب وُعَّاظَه ومرشديه ومعلميه ، ومنه كان يخرج رسل الثقافة الدينية إلى شتّى أقطار العالم الإسلامى الرحب .

وقد بدأت المرحلة وانتهت ، والأزهر حيث هو : مشغلة الحكام ومعترك الأهواء السياسية والحزبية ، والبيئة الفكرية الكبرى التى لا يمكن تجاهلها فى رصد معالم ثقافتنا والثورة ، ولا الغفلة عن مكانها فى الركب ، ومركزها فى الموقعة ، وأثرها فى عقلية الجمهرة من شباب الجيل ومناخها الفكرى .

• • •

وفاة الزميل كذلك ، أن يلتفت إلى « الجامعة » وقد عاش فى رحابها أكثر سنوات المرحلة التى قدم حصادها الثقافى والأدبى .

وكلية الآداب التى تخرج فيها الزميل ، كانت بوجه خاص ميدانًا لصراع مرير عنيف بين الشخصية المصرية وبين الغزو الفكرى والاستعمار الثقافى . مما يجعلها جديرة بأن تكون مرصداً حساسًا نطل منه على الأفق ، لنفهم طبيعة المرحلة .

فبقدر ما عـزلت الظروفُ والأهواء « الأزهرَ » عن حياة العصر ،وحاولت أن توصد أبوابه ونوافذه فى وجه العلم الحديث والفكر المعاصر ، فتحت أبواب « كلية الآداب » للغزاة الثقافيين ، ومكنت لهم من مراكز النفوذ فيها والتوجيه . .

بقدر ما حـطّـت الرجعية بكل ثقلها على « الأزهر» لتعويقه عن أداء رسالته الكبرى فى إصلاح الحياة بالدين ، حط الاستعمار بكل ثقله على « كلية الآداب » بالجامعة المصرية ، لأنها الكلية التى تختص بدراسة شخصية الأمة ؛ فى تاريخها وفلسفتها وحضارتها وطبيعة إقليمها وآثارها ، وأدبها القديم والحديث ، وما تلقت وتتلقى من روافد حضارية وفكرية : شرقية أو غربية ، عريقة أو مُحدَثة . . .

ولم نكن نحن طلابَ المرحلة صُمًّا وعميانًا ، فيفوتنا وعيُ ما احتدم هناك من صراع ، كانت عقولنا وقلوبنا وضمائرنا ميدانًا له :

صراع قوى ، تمثل فى الدعوة الجريئة الجهيرة التى حمل لواءها أستاذنا « أمين الخولى » إلى تمصير الكلية ، وقصْرِ اختصاص الأساتذة الأجانب فيها على المجال العلمى ، حين كانوا يرأسون أقسام اللغات الأوربية القديمة والحديثة ، وقسمى الآثار المصرية والإسلامية . ويمثلون هذه الأقسام فى مجلس الكلية ، بالإضافة إلى عضوين أجنبيين من خارج الجامعة . وتتدخل السفارات الأجنبية فى ترشيح كل هؤلاء ، بل تتنافس على شغل الكرسى الذى يخلو من كراسيهم وتعد السفارة نجاحها فى ذلك عملاً سياسيًّا من الدرجة الأولى . وقد سجلت محاضر مجلس كلية الآداب ، جولات هذه المعركة حول تمصير الكلية ، من يونية ١٩٤٧ إلى جلسة ٢٩ / ١١ / ١٩٤٧ .

وصراع حزبى ، بين من أرادوا صيانة استقلال الجامعة من عبث الأهواء الحزبية وفى مقدمتهم معلم الجيل : «أستاذنا أحمد لطفى السيد» وبين من جعلوها مناطق نفوذ لهم .

وصراع مذهبى وعقيدى ، احتدم فيه الجدل بين إخوان وماركسيين ، وعنفت الخصومة بين عشاق الثقافة الأجنبية والفكر الغربى ، وبين المتعصبين لثقافتهم العربية وفكرهم القومى .

والحياة العامة من حولنا تغلى وتهدر ، فتتلقفنا فى موجها المصطخب وتجذبنا إلى دوامة المعركة .

* * *

وعلى امتداد المرحلة ، من عام معاهدة ١٩٣٦ إلى حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ ؛ ظلت الجامعة تغذى الأتون الملتهب بوقود من حمية شبابها ؛ وتورد إلى السجون والمعتقلات فوجاً بعد فوج من طلاب جيلنا الذى استهل عامه الأول فى الجامعة بمصرع شهيديه « عبد المجيد مرسى ، وأحمد عبد الحكم الجراحى » .

وأساتذة هذه المرحلة ؛ جيل ثورة ١٩١٩ . . .

وأساتذتهم هم جيل ثورة عرابى . .

وطلابها ؛ هم الذين يشغلون مراكز الفكر القيادية والمناصب العلمية والفنية بمصر منذ عام الثورة ١٩٥٢ : هم مفكروها وأساتذة جامعاتها ومعلمو مدارسها ، ومنهم علماؤها وأدباؤها وخبراؤها وكتاب صحافتها والمشرفون الثقافيون على إذاعتها

فلكى نؤرخ للثورة والثقافة ، ينبغى أن نستقصى نبأ الذين علمونا بكل دقة وتفصيل : فى أى المعاهد تخرجوا ، وأين نشأوا وتربوا ؛ وأى المذاهب اعتنقوا ؛ وماذا ألفوا من بحوث ودراسات كاشفة عن المناخ الفكرى الذى تنفسنا فيه ؟

وأن نستقرىء مع ذلك كله تراث المرحلة الأدبى والفكرى ، ونرجع إلى الوثائق المدونة لمحاضر مجالس الكليات والجامعة ، بما تضىء لنا من ملامح هذه البيئة التى شاركت فى صنع الجيل المعاصر من المفكرين والمثقفين والأدباء . وقد سجل الإحصاء أن عدد طلاب الجامعة عام الثورة ، قد بلغ ثمانية عشر ألفاً ، سبقتهم ألوف

وألوف ، ممن تخرجوا فى الجامعة والمعاهد العليا على مدى ربع القرن المنتهى بعام ١٩٥٢ .

* * *

وبعد فمازلت أقول :

إن الجيل الذى وُلد فى عهد الثورة ، لم يبلغ بعدُ من العمر سوى بضعة عشر عامًا ، وسوف تمضى أعوام مثلها وأكثر ، قبل أن يشارك هذا الجيل فى صنع حياة الأمة ويحمل أمانة وجودها . فمن شاء أن يميز معالم خطواتنا نحو الثورة ، فليقف طويلاً عند المرحلة التى سبقتها وأعدت لها ، وليلتمس هناك كل الينابيع التى أمدت أبناء الشعب ، أميين ومثقفين ، بزادهم من الوعى .

من شاء أن يجمع الحصاد الثقافى والأدبى للثورة ، فليبدأ بالرجوع إلى البيئات المختلفة التى أنبتت كل هؤلاء الذين ناضلوا ويناضلون فى معركة وجودنا الفكرى ، وليلتمس لديها التفسير التاريخى لسير الحياة بنا ما بين أمس واليوم .

خاتمة : قبل ، وبعد .

لعل الذين يحسبون أن الأعوام التى سبقت الثورة ، كانت مرحلة عقم فكرى وفراغ وجدانى ، يستغربون أن أقرر أنها لم تكن فياضة بالحيوية فحسب، بل إنها ما تزال أيضاً تقدم لأدبنا الجديد مادته الثورية ، فما هو بقادر على أن يستغنى عن طول الالتفات إليها والتماس الوحى منها !

لكن هذا الذى يبدو لهم غريباً ، هو ما يشهد به الواقع ، باستقراء الرصيد الأدبى والفنى بعد الثورة ؛ حيث لا نخطئ فى أكثره ، لمحَ ذلك الأثر الباقى ، يحوم حوله أدباء اليوم ، بحيث يندر فيهم من لا يجتر مآسيه ويتفنن فى وصف أوضاعه ومخازيه ، ويطيل الوقوف على أطلاله الدارسات !

يصدق هذا على كُتاب القصة والمسرحية ، كما يصدق على الشعراء : المحافظين والأحرار . . .

ومن هؤلاء الأدباء ، من اكتفى باجترار المآسى أو المهازل ، فانتقل بوجدانه إلى الأمس الذى ولى وراح ، وتكلف معاناة الانفعال بأوضاع عفى عليها الزمان ، ووقف بالأطلال باكياً أو مستبكياً ، يستنطقها ذكرى السنين الخوالى ، بكل ما حفلت به من بؤس ، وما وعت من أصداء لصليل الأغلال وأنين المعذبين وجؤار المظلومين . . .

وإلى هذا الصنف : تنتمى كل القصص والقصائد التى ألفت بعد الثورة ، تروى مأساة الإقطاع ، وتلعن مصاصى عرق الكادحين من الفلاحين والعمال .

كما تنتمى كل المسرحيات التى إن سخرت فبأوضاع الماضى ، وإن بكت واستبكت فعلى ضحاياه !

* * *

وهناك فريق آخر ، اختار موقفه الثابت عند معبر التحول : يقارن بين أمس واليوم ، ويسجل أثر الانتقال من عهد الأسرة الألبانية إلى عصر الثورة ، ويصف ظلمات الليل عندما نسختها آية النهار .

وهؤلاء هم مؤلفو القصص والمسرحيات التى تبدأ فصولها الأولى بعرض مآسٍ مما قبل الثورة ، ثم تمضى بها حتى تنحل تلقائياً بالحدث الثورى .

بل إن الكثرة من كُتاب المقالات ، قلما استغنوا عن استلهام الماضى ؛ فهم كذلك بين مجترٍ لمآسيه ومهازله ، ومسجل لأثر التحول الثورى على أوضاعه ومخازيه. يستوى فى ذلك غالباً ، جمهرة من يكتبون المقال السياسى ومن يدبجون المقال الاجتماعى أو الأدبى ، وإن اختلفت الأساليب وتنوعت الأنماط وتعددت وجهات النظر . . .

وهذه الظاهرة — وأسميها ظاهرة الاجترار — شاهد على ثورية المرحلة التى عبأت القوى الشعبية للجولة الفاصلة فى تاريخ نضالنا القومى ، ودليل على حيوية طاقتها وامتداد نفوذها وآثارها ، وإلا لما بقيت حتى اليوم مصدراً سخياً لانفعال الكتاب ، بل إنها لتبدو أحياناً وكأنها النبع الوحيد الذى يعتصر منه فيض الإلهام كثرةٌ من حملة الأقلام وأصحاب الفن الأدبى .

ولطالما خطر ببالى وأنا أتتبع أثر الظاهرة فى أعمال كثير من أدبائنا ، أن أسأل :

ترى ماذا يكون حالهم عندما ينضب النبع لطول ما اغترفوا منه ؟

أغلب ظنى أنهم سوف يعودون على بدء فيكررون نفس المآسى والمهازل بصورة أو بأخرى ، كأن يغيروا أسماء الأشخاص وأماكن الأوضاع ، أو يعيدوا صياغة ما كتبوه مرة أو مرات ، مع شىء من التعديل .

* * *

وحين نلتمس تفسير هذه الظاهرة ، نجد الأمر فيها غير غامض ولا مستغلق على الفهم :

فالمرحلة التى سبقت الثورة ، كانت تواجه أعنف أزمات التحدى ، ومن شأنها أن تستثير الطاقة القصوى من يقظة الضمير وانفعال الوجدان .

وطبيعى أن يحرص كُتاب هذا الجيل على أن يكونوا ثوريين ، كيلا يفقدوا حيوية أقلامهم وحرارة كلماتهم . وفيما يبدو ، قد أعوزهم فى الحاضر ، ما يثورون عليه ،

بعد أن شهدوا أن الإجراءات ‌ ية سبقت أمانيهم وجاوزت مدى طموحهم ، فمن أين لهم إذن ، الحافز الثور لذى يهب أقلامهم حيوية ، ويشحن كلماتهم بحرارة اللهب ؟

قلة منهم تجاوزت هذا الوا ، ومدت بصرها إلى حيث كان الطاعون الصهيونى ناشباً فى صميم كيان الوطن . ثرة شغلوا عما وراء الحدود ، فلم يبق أمامهم ليكونوا ثوريين ، إلا أن يرجه إلى الماضى الملعون فيثوروا عليه ، فكان هذا الاجترار المستمر لأوضاعه . كاء الطويل على صرعاه وضحاياه ، والوقوف المدمن على أطلاله لاسترجاع د ياته المثيرة ورؤاه الحزينة ومضحكاته المبكيات!

وهذا هو ما قصدت إليه . ين قررت أن المرحلة الماضية ، هى التى لا تزال تسحو على أدبنا الجديد بأكثر ادته الثورية !

وذلك وحده يكفى ، لينفى ها صفة الجدب والعقم والفراغ .

* * *

وفى الحق أن بين كتاب ايوم ، من عاصروا الماضى بكل أوضاعه وعاينوا المأساة فى واقعها الفاجع ، لكنهم لبثوا صامتين يتفرجون على الأحداث دون أن ينفعلوا بها ، أو انفعلوا ولم يجرؤوا على المجاهرة بالتمرد عليها ، حتى جاءت الثورة فحررتهم من الخوف والمداراة ، وأطلقت المكبوت من انفعالهم ، فصالوا بأقلامهم فى الميدان الأدبى وجالوا ، وغمروا المسارح والمطابع بفيض من نتاجهم . . .

وعلى هؤلاء وحدهم ، يصدق حكم القائلين بانطلاق الأقلام — بفضل الثورة — بعد جمود ، والازدهار الفنى بعد فراغ ، والخصب الأدبى بعد عقم وجدب !

لكن التاريخ لا يعد أمثال هؤلاء ، بين أدباء الثورة ، ولا يخلط أعمالهم المتأخرة بحصاد الأدب الثورى ، وهم لم يشاركوا بكلمة فى التعبئة الوجدانية لمرحلة التحدى والغضب ، ولم يرفعوا قط صوتاً يحدو الركب فى مسراه نحو الفجر الجديد ، بل تواروا عنه ينتظرون ، حتى إذا ما انحسر الماضى وولى إلى غير رجعة أو مآب ، ضجوا بالثورة عليه .

إنما يلتمس التاريخ أدب الثورة عند قوم آخرين ، انصهر وجدانهم فى بوتقة المأساة ، وأرقت ضمائرهم محنةُ البغى ، فما استطاعوا انتظاراً ولا أطاقوا عليه صبراً ، واندفعوا يرجمون صروح الطغيان حين كانت تتعالى شامخة ، ويلعنون الإقطاع وهو فى إبان ضراوته ، وسهروا الليل الطويل بوجدان غاضب ثائر ، وأقلام لا تنام .

* * *

وكذلك الأمر فيما بعد الثورة :

بين الاجترار والمتابعة ، طال وقوف أدبنا فى أكثره بأطلال الماضى ، وطاب له موقفه المريح وراء الأحداث بعد الثورة ، حين كان ينبغى أن يسبقها ليرتاد لها الطريق ، بكل أبعاده ومنحنياته ومخاطره .

وعلى مدى خمسة عشر عاماً بعد الثورة ، شُغل أدبنا بما كان عما سوف يكون ، واستمرأنا نشوة الطرب ومتعة الحلم بأن « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » فلم نلمح نذر الكارثة حتى كانت ذئاب صهيون قد استأسدت ، واندفعت تجتاح الحمى وتعيث فى أرض الرسالات بوطأة قرصان وخيلاء مستعمر .

* * *

ونحن الأفراد الذين يتصدون للحكم فى قضية الأدب والثورة ، نسهو على تطاول المدى ، فينسينا الذى كان ، كرُّ الليالى ومر الأعوام . وقد تضل مقاييسنا فيخطئنا التمييز بين زائف وأصيل ، لكن للتاريخ ميزانًا حساسًا لا يختل ، وذاكرة واعية لا يفلت منها شىء ذو بال .

* * *

وبعد فإنى أعود على بدء ، فأؤكد ما قلته فى مقدمتى لهذه المحاضرات ، من أن الموضوع مجال لاختلاف وجهات النظر ، ومفتوح لجديد يقال ، وبخاصة فيما لم تتوفر لنا بعدُ مادته ونصوصه ، من أدب معركة التحرير الكبرى التى نحتشد لها ، موقنين أنها معركة الشرف والوجود والمصير .

وإذا كان ما قدمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، عن أدبنا القديم ، يمكن أن يكون مشتركًا بين أقطار وطننا العربى ، فإن الذى فى الجزء الثانى ، عن أدبنا المعاصر ، يحتاج إلى إضافات هامة أرجو أن يقدمها الزملاء الدارسون فى مختلف الأقطار العربية ، استكمالاً لملامح الصورة التى تجلو أدبنا المعاصر فى واسع رحابه وامتداد أبعاده ، واستيعابًا لمواقع نضاله فى معركة وجودنا الحر .

* * *

ثم يبقى بعد ذلك ، ما تضيفه المرحلة الحاضرة من قيم وموازين لأدبنا الذى تفرض عليه الحياة أن يأخذ موقعه فى معركة وجود الحر ، ويستجيب لما فى ضمير الأمة من إصرار على رفض الهزيمة والعار ، ويحدو جهادها المقدس ضد قراصنة العصر من لصوص الحرية وأعداء الإنسان .